المشرق

تفكهة الاذهان

في تعريف ثلاثة اديان

لحضرة الاب العالم والباحث المتفنن انستاس الكرملي البغدادي

ان من تفقّد اديان الشرق نماً يقف عندها منذهلاً ممّا يرى من كثرتها واشتباك شُعبها وهي قد ضربت اطنابها فيه منذ عصور طوال خوالٍ. ومع ما تشاهد من تعدُّدها وتنوُّعها لا تجد من قام بوصفها وذكرها من ابناء هذه البلاد فوفَّى حقَّها من التفاصيل التي تجدر بها. واذا وقفتَ على من طرقوا هذا الباب في المائة المنصرمة من الناطقين بالضاد وجدتَهم كلهم صحفيّين اي قد اخذوا علمهم عن الصُحُف لا عن استاذ او خبير او شيخ او ما ضاهى ذلك. واغلب كتبة هذه الصحف الأجناب وهؤلاء انّما يكتبون عن أهالي قواصي البلاد كتابةً ينقصها التبحُّر والاستقصاء اذ انهم يدوّنون كل ما يتلقّونهُ عن فمٍ هذا وذاك فيجمعون بين الغثّ والسمين وبين القضّ والقضيض وليس لهم وقتٌ يتفرّغون فيهِ للغور في الحقائق والغوص في بحارها الزاخرة لاستخراج لآلئها الفاخرة. وما ذلك الّا لانهم يأتون هذه الربوع بمنزلة السيّاح والروّاد او الرحّل ولا تَرِد على هذا القدر ويكاد لا يقيمون بين ظهراني اصحاب تلك البلاد الّا بقدر نغبة طائر او طرفة ناظر بالنسبة الى ما يجب عليهم ان يمكثوا لمثل هذه الامور الخطيرة. الّا انهُ يشذّ عن هذه القاعدة ما تخطّهُ ايدي المرسلين فانهم لا يتحرّون بحثاً الّا وبدقّقون فيهِ النظر

ويمعنون في استقصاء حقيقتهِ وينهجون فيهِ نهجاً قويماً . ومن العجب اننا لم نرَ من العجم والعرب من تعرَّض للكلام عن ثلاثة اديان قد ضربت بجرانها في ولاية الموصل وهي ديانة الصارليَّة والباجوران والشَّبَك مع انها من الغرابة بمنزلة رفيعة . هذا واني وان لم اطأ تلك الديار الّا اني شافهت واحداً من ابناء تلك الاقطار وقد طوى بين أظهرهم ٢٥ سنة متعاطياً مع اصحاب تلك الشيع ضروب الاشغال فوقف على دِخلة امرهم ولذلك تحفَّيتُ في السؤال عن اصحاب تلك النحل وبادرت في تدوينها حتى اذا اطّلع عليها قوم من سكان تلك الاصقاع منّن لهم فيها معرفة واسعة يزيدها تفصيلًا ان رآها ناقصة ويقوّم قناتها ان رأى فيها اوَدًا ولهُ من القرَّاء الشكر الجزيل والاجر الجليل .

١ الصارليَّة (Les Şarlych)

١ُ (تعريفهم وموطنهم) الصارليَّة بصاد في الاول بعدها الف ويليها راء ساكنة ثمَّ لام مكسورة فياء مشدَّدة جيلٌ من الناس لهم ديانة خصوصيَّة بهم لا يدين بها غيرهم وهم مبثوثون في ارجاء الموصل وفي انحاء بعض البلاد الفارسية ممَّا يلي تخوم بلاد الدولة العلية . امَّا القرى التي توطَّنوها في ولاية الموصل فهي قرية « تلّ لبن » و « بَساطليَّة » و « وكبَرلي » و « خراب السلطانة » وكلها متجاورة واصل هؤلاء الناس من بلاد ايران

٢َ (لغتهم) ان لغتهم خليط من الكردية والفارسيَّة والتركيَّة . والصارليَّة الذين يسكنون بجوار الموصل يُحسنون ايضًا التكلم بالعربيَّة

٣َ (ديانتهم) ليس الصارليَّة فرقة من فرق الاديان الكبرى بل هي شيعة قائمة برأسها واصحابها يوحّدون الله ويؤمنون ببعض الانبياء ويقولون بالعواقب الاربع اي بالموت والبعث والجنة والنار . وهم لا يصومون ولا يصلُّون ولا يسمحون بشيء من ذلك لمن يروم تحرّي هذه القُرُبات والطاعات . ومن غريب امرهم انَّ الجنَّة عندهم تُباع وتُبتاع والمتصرّف بيعها شيخٌ واحد ليس لهُ خطير بعدهُ في الفرقة كلها جمعاء . ويعتبَّ في هذا الكعب الاعلى ابنهُ البكر بعد وفاة والده . والبيع يكون بالأذرع وبموجب الموطن الذي يريد الواحد ان يكون فيهِ في الملَّيّن ولا تقلّ قيمة الذراع عن مائة بشلك (والبشلك ربع مجيدي) امَّا زمان هذه السوق فهو ابَّان الحصاد . فيأتيهم الشيخ ويعرض

عليهم الجنة فيأتيهِ الواحد مثلاً ويشتري ذراعاً او ذراعين او غير ذلك حسب حالهِ من الثروة ثمَّ ينقدهُ المبلغ من ساعتهِ فيكتب الشيخ صكّاً يقول فيهِ: «قد بعت فلان بن فلان من الجنة كذا من الاذرع وقد قبضت الثمن نقداً». ثم يختم الكتاب بخاتمهِ ويسلّمهُ بيد المشتري. واذا اراد الصارليُّ ان يوسّع ملكهُ في الآخرة فلا باس من ذلك بشرط ان يفعل هذا الفعل في الموسم من قابل وانْ لا يشتري شيئاً بنسيئةٍ. امَّا الصك فيحافظ عليهِ صاحبهُ ولا محافظتهُ على حياتهِ. وعند موتهِ يوضع في جيبهِ حتى اذا وافى دار الخلود يقدّمهُ للبوّاب المعروف باسم «رضوان» فللحال يدخلهُ ويُجلسهُ في المحل المبتاع بدون حِجاج او تراع

وعلّة تسميتهم بالصارليّة «على ما يزعمون» ان اللفظة مأخوذة من قولهم: «صارت (الجنة) لي (بالابتياع)» فُنحِتت وقيل للواحد «صارلي» وللجمع «صارليّة» وغير خافٍ ما في هذا الزعم من الخطإ والوهم لانهم ليسوا من ابناء العرب ليحسنوا هذا التصرُّف باللغة وانّما هم من ابناء فارس والتسمية فارسية مرتجلة غير اني لم اقف على معناها

ومن شعائر دينهم ان هذا الشيخ يوافي قومهُ مرَّة ثانية في رأس السنة القمريَّة فيعمد كلُّ رجل «متزوّج» صاحب امرأة حيَّة الى ذبح ديك فيطبخهُ مع ارز او قمح او طعام آخر ممَّا ليس فيهِ مرق وبعد ذلك يأتي بهِ الى الشيخ فيضعهُ هذا على سُفرة طويلة والديكُ وراء الديك الى ان يتمَّ العدد فيأتي الرجال ومعهم نساؤهم فيجلس الرجال على الشق الواحد والنساء على الشق الآخر وقبل ان يبدأوا بتناول العشاء يقوم الشيخ فيعظهم ثم يصلي على الطعام ويُباركهُ وبعد ذلك يأخذون بالاكل. ويسمون هذا الغداء «اكلة المحبَّة» واذا فرغوا من ملء بطونهم ينهض الشيخ فيقول: «ان هذه الليلة هي ليلة عظيمة ومن عرف امرأتهُ فيها فالمولود يكون مكرَّماً عندهُ تعالى ورفيع المنزلة» وبعد ان ينتهي من مثل هذا الكلام يأمر باطفاء السُرُج والأنوار وحينئذٍ تجري امور بينهم يأنف القلم من تسطيرها. الّا انهم يزعمون ان ما يرويه الناس عنهم هي اكاذيب مختلقة لا حقيقة لها ولا سند. وهم يسمون هذه الليلة «ليلة الكفشة» واللفظة مشتقة من كفش بالفاء اي قبض ومسك وسبب التسمية واضحة

ولا يجوز للشيخ عندهم ان يحلق شاربهُ او لحيتهُ ولهذا ترى لحاهم اطول من

لحية التيس واذا أراد الركوب او السفر طراها طيّات وجعلها في كيس لهُ لهذه الغاية ولا ينشرها الّا عند إلقائه العصا

وهم يبيحون الطلاق. والإضرار عندهم شائع. وصداق الابنة ويبلغ بعض الاحايين الف بشلك يأخذهُ ابوها

اما كتابهم الديني فلم استطع ان اعرف عنهُ شيئًا الّا انهُ فارسي العبارة

٤ (صناعتهم) لا صناعة لهم الّا الفلاحة وتربية الغنم والمواشي

ب البائجوران (Les Badjoran)

١ (تعريفهم ومحلّ وجودهم) البائجوران بباء في الاول يليها الف بعدها جيم حركتها بين الفتحة والضمة ثم واو ساكنة يليها راء مفتوحة فالفٌ فنونٌ جيلٌ من الناس لهم دين خصوصي بهم يسمونهُ: «اللّاهي (Allâhy)» وهم منبثّون في القرى المجاورة لولاية الموصل. ومن هذه القرى «عُمَرْ كان» و«تَبراخ زيارة» و«تلّ يعقوب» و«بَشيتا» وغيرها. ومن هؤلاء من هم منتشرون في بلاد ايران وبالاخص في القرى المتاخمة للبلاد العثمانية. واصل نشأتهم من البلاد الفارسية ايضًا

٢ (لغتهم) ان لغتهم وان كانت مزيجًا من اللغات الثلاث المعروفة في تلك الاصقاع اي الفارسية والكردية والتركية الّا انها لا تشبه بشيء. لغة الصارليّة وان كانت هذه ايضًا مركّبة من نفس هذه اللغات الثلاث كما مرَّ بك. والباجوران الموجودون في البلاد العثمانية يحسنون التكلم بعربية ايضًا بعربية تلك الديار

٣ (دينهم وبعضٌ من شعائرهم) قد علمتَ ان لهم دينًا خاصًا بهم لا يدين به غيرهم وهم يسمونهُ «اللاهي» وكُتّاب معتقدهِ انهم يوحدون الله ويحبّون الانبياء. الّا انهم يعظّمون اسماعيل تعظيمًا دونهُ تعظيم سائر الانبياء. ويستحلّون شرب المسكرات حتى ان ائمّة مذهبهم لا يستنكفون منها. ورؤساءهم كثيرون وبكل رئيس منوطة عناية ست أسر او سبع ومنها تجري عليهِ ارزاقهُ. ولا يحقّ لهُ ان يسترزق من العيال التي ليست تحت رعايتهِ. والصوم عندهم حرام وهم لا يعرفون الصلاة ابدًا. الّا ان لهم حفلة دينيّة غريبة في بابها تجري في بعض اعيادهم. وهي انهُ يوم يزور فيهِ الرئيس رعيّتهُ يعمد الرجل الى سَلْق سبع بيضات من البيض الغريض ابن يومهِ ثم

تُجمع بيوض جميع تلك البيوت وتُجعل في الدار التي ينزل فيها الرئيس فيأخذ هذا بتقشير البيض واحدةً واحدة وبعد ذلك يُخذعل ببيكين كل واحدة منها سبع خذاعيل ويجعلها في وعاء واحد ثم يشرب الحضور مسكرًا وبعد ذلك يصلّي الرئيس على البيض وهي الصلاة الوحيدة الموجودة عندهم ثم يقول ما معناهُ: « هذا البيض هو قربان اسماعيل فلا يجسرنَّ الواحد منكم ان يدنو منهُ ويتناول شيئًا من ذلك ما لم يقرّ جهارًا بالاثم الذي اجترحهُ وبالدنايا والخطايا التي ارتكبها » فحينئذٍ يعترف كل واحدٍ من الجلوس بالخطيئة التي ركب مطيّتها من سرقة وقتل وزنى وحنث وتجديف وكفر الخ وبعد ذلك يتقدّمون الى تناول الطعام

ومن فرائض دينهم ندب الحسين في ايّام العاشوراء وفي بدء تلك الايام يأخذون عدَّة اولاد يجرحونهم بمدية فوق المرفق من الجانب الإنسي ويجولون بهم في البيوت ليتذكّروا احزان الحسين واوجاعهُ ثم يصرف السُكن هؤلاء بأمنطقة مهما كانت وبالاخص ينفحونهم بشيء من الحبوب والقطاني فيأتي بها هؤلاء الى بيت معلوم وفي النهار التاسع تُطبخ معًا جميع تلك الاطعمة ويسمون الحاصل من هذا الطبخ « شَشًا » فيوزّعون منهُ على جميع الدور من المتمسكين بعروة دينهم

والطلاق عندهم جائز كما انَّ الإضرار (تعدُّد الزوجات) عندهم جارٍ

امَّا كتابهم الديني فليس لهُ ذكر بين الناس

٤ (صناعتهم) لا مهنة لهم سوى الزرع وتربية الضرع على حدّ ما يفعل الصارليَّة المتقدم ذكرهم

ج الشَبَك (Les Chabac)

١ (تعريفهم وموطنهم) قد جاء ذكر الشبك استطرادًا (في المشرق ٢ : ٣٩٥ في الحاشية في الكلام عن اليزيديَّة) وهم جيل من الناس من عنصر كردي لا يُعرف لهم دين خصوصي وهم منبثّون في قرى عديدة منها: « عليّ رشّ » و « يَنكيجا » و « خزنة » و « تلّارة » وقرى اخرى عديدة في اطراف جبل سنجار ومنهم من هم منتشرون في بلاد ايران على تخوم البلاد العثمانية

٢ (لغتهم) تختلف عن لغتي الجيلين المذكورَين وان كانت هي ايضًا خليط من الكردية والفارسية والتركيَّة ويعرف اصحابها ايضًا اللغة العربيَّة

٣ (ديانتهم وعواندهم) يوحدون الله ويحبون علياً محبةً عظيمة ويسمونهُ « عليّ دشّ » ولا يعرفون صوماً ولا صلاة بل يكرهون من كان منهم يفعل ذلك كل الكراهية وفي اغلب الاحيان يشاركون اليزيديَّة في بعض حفلاتهم الدينيَّة وفي زيارة مزاراتهم (راجع المشرق ٢ : ٣٩٥) . ولهم عادة دينيَّة قبيحة منكرة وهي انهم يجتمعون في ليلة يعيّنها الرئيس في كل سنة عند مدخل مغارة عظيمة سرّيَّة يحيونها في الاكل والشرب والقصف واللهو تُعرف عندهم « بليلة الكفشة » كما سماها الصارليَّة ويختمونها بارتكاب اشنع المنكرات ويحضر تلك السنَّة الذكور والاناث من صغار وكبار (راجع ايضاً المشرق ٢ : ٧٣٢ وكتاب الفاضل ڤيتال كينه ص٧٧)

ومن عواندهم ان الرجال منهم اذا تناولوا الطعام يقبضون باليد اليسرى على شواربهم ليرفعوها لكي لا تتلوَّث بالطعام وباليد اليمنى يأكلون ولا يجوز لهم البتة حلق شواربهم او لحاهم وجميع الملل تكره الشبك وقد اصطلح المسلمون في تلك الديار على تسميتهم بالعُوج جمع أعوج لاعوجاج مذهبهم واذا خاطبوا الواحد منهم نادوه : « يا أعوج »

٤ (صناعتهم) الفلاحة وتربية المواشي

خاتمة في فصول عامة بين اصحاب هذه الاديان الثلاثة

ان هذه الاجيال الثلاثة وان تباينت اديانها واختلفت مذاهبها الّا ان بينهم جامعة واحدة تجمع اصحابها وتأخذ برقابهم وتسوقهم جميعاً الى عنصر واحد وهو العنصر الكردي في الاصل وعلى الاغلب وان كان بينهم عدد عديد من الفرس . وهذه الرابطة هي ملامح الوجه وتقاطيعهُ فانك ترى الباجوران والصارليَّة والشبك كالكرد مفتولي الخلق شديدي العَضَل طوال النجاد لطيفي الأطراف سُمر البشرة قُني الانوف يغلب على عيونهم الدُبسة (لون بين السواد والحمرة) وعلى شعورهم السواد . واسنانهم بيضاء برّاقة متناسقة متضامَّة وافواههم واسعة وصدورهم رحبة وغير ذلك من الفصول المميّزة للاكراد وبالخصوص يغلب على اخلاقهم الجَنَف والعُنف والهمجيَّة والعُنجهيَّة على نوع لا تُرى الّا في الاكراد وشرٌّ من ذلك انها معقودة بالحقد والضغينة اللتين تخفيهما المداهنة وتظهرهما الغِرَّة حتى انهُ :

يلقاك والعسل المصفّى يُجتنى من قوله ومن الفعال العلقمُ

من الجروم الى الصرود

(فكاهة)

للمعلم الاديب يوسف افندي فاخوري احد اساتذة المدرسة البطريركية الزاهرة

بيروتُ جوّكِ في الشتاء جميلُ   وهواء ثغركِ في الربيع بليلُ
وزلالُ مائكِ في الخريف يروقنا   ورياض ارضكِ بالقلوب تميلُ
وطباعُ اهلكِ يا مدينة رقّةٌ   واللطف إرثٌ والوفاء سليلُ
من كلّ اروعَ لا ينهنهُ عزمَهُ   يومَ النوائب في الامور جليلُ
فيكِ المدارسُ والمعاملُ والتجا   رةُ والصناعةُ والكرام قبيلُ
وبكِ الحياة يلذُّ عذب مياهها   تصفو وتعذب والهناء زميلُ
لكنَّ صيفك كالجحيم بنارها   وشعاعُ شمسك كالوقيد شعيلُ
عرَقٌ كماء النهر منّا هاطلٌ   وعلى النحور من الخدود يسيلُ
وغبار سُبلكِ في الفضاء محلّقٌ   وعلى الرؤوس من الغبار سبيلُ
والناس تطلب من مياهك رشفةً   وبجرعةٍ من مائك التشميلُ
والثلج لا يروي الغليل وانّما   بالثلج زاد من العطاش غليلُ
والليـل تحييهِ البراغيث التي   تأبى الرقاد ولا تزال تجولُ
والبقّ ضيفٌ بالمنازل قاطنٌ   تبًّا لهُ كم ذا المضاف ثقيلُ
والبرغشُ الوخّاز دام ترالنـا   وحماتهُ ما مسّهنّ فلولُ
والصرصرُ المكروه صوت صريرهِ   قطن الديارَ وقربهُ مملولُ
نبغي الدفاع ولا دفاعَ بوسعنا   يولي انتصارًا والعدوُّ نحيلُ
ألِف التهجّدَ جفنُنا في ليلنا   والليل إن أرق الانام طويلُ
والناس من حرّ النهار تكاسلوا   طلبوا المقيل وما اليهِ وصولُ
كرهوا الطعام ولا طعام دون شر   بِ زلالِ ماء طيبهُ معسولُ
فلتلك احوالٌ تحطُّ من القوى   فيُداهم الجسمَ القويَّ نحولُ
ان كنتَ تبغي صحّةً ومسرّةً   فهوا الصرودِ السقمَ عنك يزيلُ

فالماء عذبٌ رائقٌ ذو لذةٍ والحظُّ فيها للمقيم خليلُ
لله درُّكِ يا صرودُ فثغركِ الـ م ثغر البهيُّ يُقال عنهُ جميلُ
كم من مريض امَّ ارضَكِ طالبًا برء السقام فبدا بكِ المأمولُ
سبحان ربّكِ فالجروم مفيدةٌ وقت الشتاء وبها الهنا مبذولُ
في الصيف منفعة الصرود غزيرة تحيي القوى وبها يقاد عليلُ
انّا لنبدري بالإله مدبّرًا هذا الملا ولنا الضمير دليلُ
لا شكَّ ربّك ذا التغيّر مبدعٌ فهو الالهُ وبالإلهِ اقولُ

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٣ انهار لبنان: منافعها واسماؤها

اسماء انهر لبنان قديمًا وحديثًا

قلنا انَّ اول أنهُر لبنان شماليًّا نهر البارد. والمظنون انهُ هو النهر الذي دُعي قديمًا برو تُس (Bruttus او Brutus) وان اشتقاقهُ من اصل ساميّ

ثم انا نجهل الاسم الذي عُرف به عند القدماء النهر الثاني اي ابو عليّ. كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهير الذي اعارهُ اسم ابي عليّ

امَّا نهر ابراهيم فقد مرَّ ذكرهُ في مقالة سابقة (راجع المشرق ٢: ٧٠٢ و ٣: ٢٩٠) حيث اثبتنا ما يختصّ باسمهِ القديم ادونيس (اي تموز) وباسمهِ الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائهِ وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوَّل (راجع المشرق ١: ١٠٨٧)

وان تخطَّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمهُ مشبوهٌ بهِ وان كان الرأي الشائع انهُ هو نهر ماغوراس الذي ذكرهُ بلينيوس في تاريخهِ الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعلهُ في

جوار بيروت · وفي قوله هذا نظر اشرنا اليهِ في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (المشرق ١٠١٦:١)

ومما حمل العلماء على القول بانَّ ماغوراس هو هو نهر بيروت ان بلينيوس جعلهُ على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر الَّا النهر المنسوب اليها فضلًا عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أُطلقت على الانهر الواقعة جنوبيَّ بيروت وشماليًّا ما عدا اسم نهرها

على انَّ بعض العلماء شكُّوا في ذلك وظنُّوا ان مقصود بلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانهُ في وصفهِ لمدن الساحل مباشرةً من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأَنهُ جعلهُ جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شماليها · ولمَّا كان بلينيوس ضرب صفحًا عن ذكر الدامور ظنوا انهُ دعا هذا النهر باسم ماغوراس ·

هذا الرأي لا يخلو من شبه الصحَّة بيد اننا نفضل القول بان بلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدَّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلًا من ان يؤخرهُ · ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء · او يُقال انَّ هذا الامر جرى على يد النسَّاخ سهوًا منهم · ومن ثمَّ فانَّ الرأي الاصحَّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور · فعسى العلما ان يجدوا كتابة تؤيد رأينا وتزيل كلَّ شبهة عن نصّ بلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرَّر في كتب القدماء وهم يدعونهُ تاميراس وقد عرفهُ المؤرخ پوليبيوس باسم داموراس (Δαμοῦρας) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة · وكذلك لا شبهة في تعريف اسم « الاوَّلي » القديم · فان الكتبة قد دعوهُ بُستْرينوس (Bostrenus)

بقي آخر انهار لبنان جنوبيًّا وهو الليطاني فان في تعريف اسمهِ القديم مشكلًا عظيمًا ولعلَّ القدماء لم يتعرَّضوا لذكرهِ وقد شاع اليوم عند الكتبة الحدثين ان الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) الذي ورد اسمهُ في بعض تآليف اليونان فحُرِّف الى الليطاني · وكنَّا نحن ايضًا جنحنا الى هذا القول (راجع المشرق ١ : ١٠٨٨) لما فيهِ من شبه الحقيقة · لكنَّ في هذا الرأي عقبات كما سترى ·

فلنباشر اولًا بذكر الاشياء المقرَّرة التي لا يُختلف في صحّتها

من المعلوم ان اسم هذا النهر حاليًا الليطاني ويُدعى عند مصبّهِ بالقاسميّة. وعلى الاصحّ انهُ عُرف بذلك لمزار هناك يُدعى النبي قاسم. وزعم البعض ان القاسميّة مشتقّة من القَسْم كأنَّ النهر قاسمٌ بين صور وصيداء او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند لهُ والدليل على بطلانهِ انهُ لا يُطلق عليهِ هذا الاسم الَّا تحت قامة الشقيف لمَّا يلتوي عن سيرهِ الجنوبي فيجري الى البحر. فلو كانت نسبتهُ الى قَسْم البلدين لصدق الاسم عن كل مجراهُ الجنوبي لا عن مصبهِ فقط. ثمَّ ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكرهُ خليل الظاهري في كتابهِ زبدة كشف المالك والمقريزي في تاريخ المماليك (١

امَّا اسم الليطانيّ فانهُ قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاهُ شمس الدين الدمشقي (ص١٠٧) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وقبلهما الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢. ويروى ايضًا في بعض النسخ « لنطة » بدلًا من ليطة. وليس لليطاني ذكرٌ في جغرافيي العرب غير هؤلاء الثلاثة. ولا عجب فان العرب قلَّما كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تآليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنَّفات سابقة لعهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحةً من العرب. ولعلهم ضربوا عنهُ صفحًا. وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارة صريحة حيث قال: « ويجري قرب صور نهر » بيد انهُ لم يُفدنا عن اسمهِ شيئًا. وان استطلعتَ بقيَّة المؤلفين كسكيلاكس وبمبونيوس ميلا وبلينيوس وبطلميوس لا ترى لهم كلمةً عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتَّة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيداء.

قلنا ان كتبة اليونان لم يذكروا الليطاني. أجل لكنَّ بعضًا منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος πόταμος) فلمَ لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم

١) Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, 1 partie, p. 174

٢) راجع طبعة غلدميستر ص ١٢

اليوناني بعض تحريف لمَّا نُقل الى العربيَّة. نجيب اننا لم نكن لنتردد في تصويب هذا القول لولا ان بطلميوس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيداء. وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى. وكذلك نرى تشويشًا عظيمًا في ما كتبهُ هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس » التي نُسب اليها هذا النهر فهم يقولون انهُ كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوبوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيداء جنوبي نهر الدامور. وهو رأي اسطرابون الجغرافي. امَّا بلينيوس فيزعم ان موقع لاونتوبوليس بين بيروت ونهر الكلب. وفي جغرافيَّة سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيداء. وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في امر اسم الليطاني عند اليونان امَّا لاونتوبوليس فسيأتي ذكر موقعها قريبًا

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهيَّة لم تنوّه باسم الليطاني مع انَّهُ كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدسة (١. فترى ممَّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمهُ وتاريخهُ القديم لمن المعضلات التي استغلق بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفكّ هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلّنا اذا رقينا في سلّم الادهار وقفنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تزيد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انهُ قد ورد في الكتابات المصريَّة الهيروغليفية اسم اقليم يدعى « رطنو » و « رتنو » و « رتينو » موقعهُ شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيهِ يجري الليطاني. ثم انَّ الراء في اللغة المصريَّة من الحروف الذُلق التي كثيرًا ما تُبدل باللام فتكون « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسمٍ لبلدٍ واحد (٢. ومن ثمَّ فليس بمستبعد أن يكون اسم الليطاني اشارة لهذا القطر ومعناهُ « النهر الجاري في بلد لطنو » فقيل اختصارًا « ليطاني » كما نقول نهر بيروت ونهر عكَّار دلالةً على البلد الذي يجري فيهِ هذان النهران

---

١) راجع المجلة الكتابية سنة ١٨٩٣ (ص ٢٣)

٢) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402) بحثًا حسنًا في ما نحن بصددهِ للدكتور تندا تريل كابتنا قبل عامين

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم. امَّا اسمهُ اليوناني فلا سبيل الى توفيقهِ على ما كتبهُ اليونان بخصوص نهر لاونتوس. والله اعلم

(ستأتي البقية)

الرتبة البطريركيَّة

نبذة في اصلها وتاريخها وحقوقها

للاب ميخائيل تاميزيه اليسوعيّ (لاحق بسابق ص ٤٣٣)

في فصل اوَّل توخَّينا بيان اصل الرتبة البطريركيَّة في الكنيسة فاظهرنا ببراهين عقليَّة وادلة نقليَّة ان المسيح لذكرهِ السجود لم ينشئها بنفسهِ اذ لا اثر لها في الانجيل الطاهر وانَّما وضعها الرسل وفي مقدَّمتهم بطرس الصفا لما وجدوا في وضعها من الوسائل الضامنة لحسن سياسة الكنيسة وترقية شؤونها. ولم تكنْ هذه الرتبة في الاصل الَّا سيطرة بعض الكنائس النشأة في حواضر المدن على كنائس أُخر اخذت عنها الايمان او وقعت في حيّزها فصارت تحت حكمها. وانَّما امتازت بين هذه المراكز مدينتان كان لهما بعد رومة من الخطر وعظم الشان ما لا يختلف فيهِ اثنان وهما الاسكندريَّة وانطاكية اختارهما هامة الرسل فجعلهما كرسيَّين ممتازين نالا من سمو مقامهِ رفعةً وجلالًا لم ينلهما غيرهما من الكنائس المنتمية الى الرسل

وقد خُصَّ اصحاب هذين الكرسيين باسم يفرزهم عمَّن سواهم فدُعوا بطاركةً منذ النصف الاوَّل من القرن الخامس. وقد أُطلق هذا الاسم اولًا على الاحبار الرومانيين (١

١) سبق في المشرق (٥ : ٤٣٩) ان اسم البطريرك ظهر لاول مرَّة في اعمال المجمع الخلقيدوني وقد وجدناهُ قبل هذا العهد بقليل في المؤرخ سقراط المتوفّى سنة ٤٤٠ ذكرهُ دون تخصيصهِ باصحاب الكراسي الاربعة (راجع اعمال الاباء اليونان في المجلد ٦٧ ص ٥٧٩) ثمَّ لقب بهِ نسطوريوس المبتدع (ك ٧ ف ٣١). وكان القديس غريغوريوس التريتري استعملهُ سنة ٣٨٢ في خطبتهِ الوداعية لشعبهِ اشارة الى كبار الاساقفة اجمالاً (راجع اعمال الاباء لمين ج ٣٦ ص ٤٨٦). وقد خصَّهُ القديس كيرلس الاسكندري بالحبر الروماني قبل المجمع الخلقيدوني في خطبةٍ لهُ اثبت

الى ان شاع اسم البابا فصار خاصًا بنوّاب المسيح على الارض لسيادتهم على الكنيسة جمعاء. وبقي اسم البطاركة للكرسيَّين اللذين دون الكرسي الروماني مرتبةً اعني الاسكندريَّة وانطاكية. هذه خلاصة مقالتنا الاولى

بيد اننا نرى اليوم ان الرتبة البطريركيَّة ليست محصورةً بالكرسي الاسكندري والكرسي الانطاكي بل توفَّر عدد الذين يُرقَّون الى هذا المقام الرفيع فترى كيف حصل كل هؤلاء على هذه المنزلة الخطيرة وكيف نالت كراسيُّهم هذه الامتيازات السامية

اعلم ان اول من حظي بالرتبة البطريركيَّة بعد الاسكندريَّة وانطاكية صاحبا الكرسيَّين الاورشليمي والقسطنطيني. امَّا توصلهما الى ذلك فانهُ يستدعي بعض الايضاح فنقول مباشرين بذكر القدس الشريف

*

(البطريركيَّة الاورشليميَّة) لمَّا اختار الرب مدينة صهيون فقدَّسها ببشارتهِ وتعاليمهِ وموتهِ وقيامتهِ اضحت اورشليم امَّ الكنائس النصرانيَّة والسابقة لهنَّ جميعًا اذ منها خرج الرسل ليطوفوا في اقاصي المسكونة وينشروا ملكوت الله

لكنَّ نبوَّة المسيح عن هذه المدينة لم تلبث ان تتمَّ بالحرف (لوقا ١٩: ٤٢-٤٤) فانها اذ لم تعرف وقتَ افتقادها احاط بها اعداؤها بمترسة وضيَّقوا عليها وهدموها غير تاركين فيها حجرًا على حجر. فصارت مذ ذاك الحين قاعًا صفصفًا لم يأوِ اليها الَّا بنات آوى وينعب فوقها الغربان. امَّا المتنصّرون من بنيها فكانوا بوحي منهُ تعالى خرجوا من المدينة وعبروا الاردن وسكنوا بلدةً تدعى بلَّا (Pella) وكان لهؤلاء النصارى اسقف يسوسهم خلف يعقوب اخا الرب في تدبير شؤونهم. ولمَّا كان هؤلاء المتنصّرون من

فيها كون العذراء مريم ام الله قال: « وانا شاهد حقّ عن ذلك في الاب الاقدس ورئيس اساقفة المسكونة كلها سلستينوس بطريرك رومة العظمى »

Μάρτυρα παρέχωμεν ἀξιόπιστον... τὸν ἁγιώτατον καὶ ἀρχιεπίσκοπον πάσης τῆς οἰκουμένης Πατέρα τε καὶ πατριάρχην Κελεστῖνον τὸν τῆς μεγαλοπόλεως Ῥώμης

(راجع اعمال اباء اليونان المجلد ٧٧ ص ١٠٢٩) وفي هذه الشهادة احسن ردّ على من نسبوا طمع الرئاسة الى الكرسي الرسوليّ

عليهم الجنة فيأتيهِ الواحد مثلا ويشتري ذراعًا او ذراعين او غير ذلك حسب حالهِ من الثروة ثمَّ ينقدهُ المبلغ من ساعتهِ فيكتب الشيخ صكًّا يقول فيهِ: «قد بعت فلان بن فلان من الجنة كذا من الاذرع وقد قبضت الثمن نقدًا». ثم يختم الكتاب بخاتمهِ ويسلّمهُ بيد المشتري. واذا اراد الصارليُّ ان يوسّع مُلكهُ في الآخرة فلا باس من ذلك بشرط ان يعمل هذا الفعل في الموسم من قابل وانْ لا يشتري شيئًا بنسيئة. امَّا الصك فيحافظ عليهِ صاحبهُ ولا محافظتهُ على حياتهِ. وعند موتهِ يوضع في جيبهِ حتى اذا وافى دار الخلود يقدّمهُ للبوّاب المعروف باسم «رضوان» فللحال يدخلهُ ويُجلسهُ في المحل المبتاع بدون حِجاج او تراع

وعلّة تسميتهم بالصارليّة «على ما يزعمون» ان اللفظة مأخوذة من قولهم: «صارت (الجنة) لي (بالابتياع)» فنُحتت وقيل للواحد «صارلي» وللجمع «صارليّة» وغير خافٍ ما في هذا الزعم من الخطأ والوهم لانهم ليسوا من ابناء العرب ليحسنوا هذا التصرُّف باللغة وانَّما هم من ابناء فارس والتسمية فارسية مرتجلة غير اني لم اقف على معناها

ومن شعائر دينهم ان هذا الشيخ يوافي قومهُ مرَّة ثانية في رأس السنة القمريَّة فيعمد كلُّ رجل «متزوّج» صاحب امرأة حيَّة الى ذبح ديك فيطبخهُ مع ارز او قمح او طعام آخر ممَّا ليس فيهِ مرق وبعد ذلك يأتي بهِ الى الشيخ فيضعهُ هذا على سُفرة طويلة والديكُ وراء الديك الى ان يتمَّ العدد فيأتي الرجال ومعهم نساؤهم فيجلس الرجال على الشق الواحد والنساء على الشق الآخر وقبل ان يبدأوا بتناول العشاء يقوم الشيخ فيعظهم ثم يصلي على الطعام ويُباركهُ وبعد ذلك يأخذون بالاكل. ويسمون هذا الغداء «اكلة المحبَّة» واذا فرغوا من ملء بطونهم ينهض الشيخ فيقول: «ان هذه الليلة هي ليلة عظيمة ومن عرف امرأتهُ فيها فالمولود يكون مكرَّمًا عندهُ تعالى ورفيع المنزلة» وبعد ان ينتهي من مثل هذا الكلام يأمر باطفاء السرُج والأنوار وحينئذٍ تجري امور بينهم يأنف القلم من تسطيرها. الَّا انهم يزعمون ان ما يرويهِ الناس عنهم هي اكاذيب مختلقة لا حقيقة لها ولا سند. وهم يسمون هذه الليلة «ليلة الكفشة» واللفظة مشتقة من كفش بالفاء اي قبض ومسك وسبب التسمية واضحة

ولا يجوز للشيخ عندهم ان يحلق شاربهُ او لحيتهُ ولهذا ترى لحاهم اطول من

على ان هذه الاعتبارات كلها لم تنز بالمرغوب وبقي الكرسي الاورشليمي تحت حكم قيسارية حتى سُقِّف يوفينال وتولّى زمام رعية القدس الشريف. وكان يوفينال رجلاً مقداماً ذا سطوة ونفوذ لا يُحجم في سبيل رغائبه عن الوسائل التي يراها كافلة بالنجح والفوز فيلتجئ الى التملّق حيناً وحيناً الى الصلات والعطايا ويتقرّب تارةً الى الامراء والحكّام وطوراً الى اصحاب البدع. فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى حمل تاودوسيوس الملك على ان يحرّره من كرسي قيسارية ويجعله رئيس اساقفة على ثلاثة اقاليم فلسطين. غير ان مكسيموس بطريرك انطاكية اقام عليه الحجة وتعرّض له في سبيل مساعيه امّا يوفينال فلم يكن ممّن ينكصون على الاعقاب فصانعهُ وداهنهُ وخاتلهُ وراوغهُ حتى نال رضاهُ بشرط ان يدع تحت حكم الكرسي الانطاكي اقليمي فينيقية والبلاد العربية. ولمّا كان المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ أحفى الآباء وبرّح بهم في الالحاح حتى صادقوا على تقديم كرسيه وجعلوه كرسياً بطريركياً مستقلاً عن انطاكية. لكن مكسيموس الانطاكي ندم على ما فرط منهُ وكتب الى الحبر الاعظم القديس لاون الكبير ليوقفهُ على حقيقة الامر. فما بلغ علم البابا هذا التفصيل حتى ابطل بحكمه السامي كلَّ ما صار في المجمع بهذا الشان وامر بان يجري الكلّ على مقتضى قوانين مجمع نيقية واخذ على نوّابه في المجمع لمصادقتهم على مطامع يوفينال دون اطلاعه على ماجريات الامر

الّا ان يوفينال اصمَّ سمعهُ دون اوامر البابا مستنداً الى رأي الاباء الذين رماهم في حبائله ولم يزل مذ ذاك الحين يتصرَّف في اعماله تصرُّف البطاركة ويدَّعي بحقوقهم وكذا فعل من بعده خلفاؤهُ على الكرسي الاورشليمي. امّا الاحبار الاعظمون فلم يقرّوا بقانونيّة هذا العمل وما فتئوا يعتبرون كرسي بيت المقدس كاحد الكراسي الشرقيّة التي ليس لها سلطان على سواها من الكنائس وجروا على ذلك الى ان عُقد المجمع المسكوني الثالث عشر وهو اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥ فاصلحوا الفاسد وثقّفوا العوج ومنحوا حقوق البطريركية لصاحب بيت المقدس

*

(البطريركيّة القسطنطينيّة) بينا كان اصحاب الكرسي الاورشليمي يسعون في حلّ ربقة قيسارية ويبرهنون عمّا لكنيستهم من الخواص لينالوا لها ضرباً من الاستقلال

ظهرت في بلاد ثراقية مدينة صُغرى استوقفت بموقعها انظار ملوك رومة فاتخذوها تختاً لملكهم. ألا وهي مدينة بوزنطية التي احتلّها قسطنطين الكبير وجعلها حاضرة مملكته التي اظفره الله بها بعد قهر اعدائهِ. ولم يكُ قبل ذلك العهد مقام بوزنطية من حيث الدين اعظم من مقامها من حيث الرتبة المدنيَّة فاننا لا نرى صحَّة لما زعمهُ البعض انَّ القديس اندراوس بشَّر فيها بالانجيل وسقَّف عليها بعض تلامذتهِ. وانَّما التاريخ الصادق لا يذكر لبوزنطية اسقفًا قبل مطروفانيس القديس الذي تولَّى رعاية هذه الكنيسة سنة ٣١٥ (راجع قول المسعودي في المشرق ٥:٢١٩) ولهذا السبب لم يورد آباء المجمع النيقاوي ذكرًا لصاحب الكرسي البوزنطي ولم يفرزوهُ عمَّن سواهُ من الاساقفة وهو اذ ذاك تحت حكم رؤساء اساقفة هرقلة (Héraclée).

وكان دخول قسطنطين مدينة بوزنطية سنة ٣٢٩ م فما احتلَّ ربوعها حتى تغيَّرت احوال البلدة الخاملة وصارت بعد زمن قليل امَّ المدن وعاصمة الدولة الرومانيَّة دون منازع فدُعيت لذلك رومية الجديدة. وكان خلفَ وقتئذٍ مطروفانسَ في كرسيهِ القديسُ اسكندر ثمَّ قام بعدهُ سنة ٣٤٢ القديس بولس الذي جاهد في سبيل الله وقاوم البدعة الاريوسيَّة فنقم عليهِ المبتدعون ونفوهُ مرارًا من كرسيهِ لاجل الايمان وحاولوا زرع الزؤان في كرم الرب. وكان اكبر همّ هؤلاء الدخلاء ان يعظّموا سلطتهم ويوسّعوا دائرة نفوذهم. وقام بعد القديس بولس اساقفة دونهُ قداسةً وصلاحًا بل أجراء يرعون انفسهم كما يقول حزقيال وينهبون قطيع الله منهم مقدونيوس الاراتيكي واودكسيوس وديموفيلوس المبتدع فلم يرضوا بان يكون كرسي القسطنطينيَّة دون الكراسي الرسوليَّة المجاورة لهُ كافسوس وازمير وقورنثوس وتسالونيقية وقيساريَّة. ومن ثمَّ افرغوا كنانة جهدهم في شقّ عصا الطاعة لهرقلة وصاحبها. وما اكتفوا بذلك حتى اعتلاهم التطاول فدفعهم الى تنكيس هذه المراكز وحطّ درجتها

وقد ساعدتهم على ذلك الظروف اذ وجدوا في بعض ارباب السلطة عضدًا وازرًا لترويج غاياتهم فاقنعوهم بان يجعلوا القسطنطينيَّة مركزًا للدين كما اتخذوها حاضرةً للمملكة. وقد وافقهم على ذلك خصوصًا الملكان الاريوسيَّان قسطنطيوس ووالنس رجاء ان يزيدا مقرّ السلطنة جاهًا وعظمةً فرخَّصا لاساقفة القسطنطينيَّة بان يلقّبوا انفسهم باساقفة رومية الجديدة

وكان اساقفة المملكة لا يزالون يترددون الى عاصمة الدولة ليعرضوا على الملك شؤون رعاياهم ويستمدّوا منهُ النعم والهبات فكانوا اذا اعتاص عليهم الامر التجأوا الى شفاعة اساقفة القسطنطينيَّة وتوسّلوا الى الملك بوسيلتهم فزاد على هذا النمط مقامهم وترقّت مرتبتهم واخذ كثيرون يستعطفونهم ويعظمونهم ويلقّبونهم بالألقاب الفخيمة لحاجتهم اليهم في تنفيذ امورهم الزمنيَّة

وممَّا اضاف الى مقام اساقفة القسطنطينيَّة رفعةً وشرفًا مجامع سنويَّة كانوا يعقدونها في مدينتهم تُدعى مجامع بلديَّة (σύνοδοι ἐνδημοῦσαι) وهم يتصدَّرون فيها. ولمَّا كان عدد وافر من الاساقفة لا يزالون في هذه العاصمة لاشغالهم المدنيَّة كانوا يحضرون هذه المجامع فتزيد بحضورهم رتبة الاسقف المتقدم عليها

وكذلك كان ملوك القسطنطينيَّة يحوِّلون الى اساقفة مدينتهم بعض الدعاوي الدينيَّة والمدنيَّة معًا ليحكموا فيها حكمًا فصلًا فيضطرّ الاساقفة الى مراجعتهم وقبول حكمهم وكلّ ذلك كان يجعل الكرسي القسطنطيني في منزلة خطيرة ويمهِّد لاصحابه السبيل الى ان يطمحوا ببصرهم الى الرئاسة والتسلُّط

على ان هذا روح الطمع لم يعمل في قلوب بعض رجال الله كانوا اتخذوا الفضيلة دأبًا والتواضع ديدنًا كالقديسين العظيمين غريغوريوس النزينزي المعروف بالتاولوغس ويوحنَّا فم الذهب ويا حبَّذا لو حذا كثيرون من خلفائهما حذوهما في تزاهتهما وتجرُّدهما عن الجنف

وممَّا ذلَّل لهم الصعاب انَّ آباء المجمع الثاني وهو القسطنطيني الاول سنة ٣٨٢ احبُّوا ان يعظموا الكرسي القسطنطيني ويزيدوا في مقامه تزلُّفًا لشخص الملك. ومن ثمَّ وضعوا في ذلك خمسة قوانين باغراء نكتاريوس خلف القديس غريغوريوس فمنحوا صاحب القسطنطينية امتيازات خارقة العادة لم تحقُّ لهُ سابقًا. ولكنَّ هذه القوانين لم يثبتها الاحبار الرومانيون بل لم يعرفوها كما صرَّح بذلك القديس لاون الكبير في رسالته الى اسقف القسطنطينيَّة اناطوليوس الذي استند اليها لتذكية نفسه لدى عظيم الاحبار في القرن الخامس فكتب اليه لاون: « امَّا قوانين المجمع القسطنطيني الخمسة التي اشرتَ اليها فان الكنيسة الرومانيَّة لم تطَّلع عليها ولم تقبلها وعليهِ فلا قوَّة لها لاثبات دعواك »

وكان قبل اناطوليوس جلس على كرسي القسطنطينيّة رجل آخر رذلت الكنيسة تعاليمهُ وقطعتهُ من شركتها ألا وهو نسطوريوس الاراتيكي فهذا كان سعى علانيةً في تحويل كرسيهِ الامتيازات والانعامات ليزيد بذلك استقلالاً ويبذر اضاليلهُ في القلوب دون ان يتصدّى احدٌ لعملهِ الذميم

وهكذا بقيت احوال الكرسي القسطنطيني الى أيام المجمع الرابع المنعقد في خلقيدونية يحاول بعض اصحابهِ الترفّع والفخفخة بينما كان غيرهم على خلاف ذلك لا يطلبون سوى مجدهِ تعالى وخير النفوس ولا يتعدّون طورهم في الرئاسة يكتفون بما اكسبتهم الظروف من النفوذ والكلمة الراجحة. وقد اشتهر بعد يوحنّا فم الذهب القديسون سيسينيوس وبروكلس وفلابيانوس وقد دار بينهم وبين الباباوات رسالات تشهد لهم بالفضل وتظهر اعتبار الكرسي الرسولي لاشخاصهم وفضائلهم وتشعر بان الاحبار الاعظمين صادقوا على بعض امتيازاتهم. وكذلك قد ذكر اصحاب سيرة القديس يوحنّا فم الذهب اعمالاً تدلّ على ان القديس قضى في شؤون بعض كنائس ثراقية وبُنطوس والاناضول وباشر فيها احكاماً شتى وسيطرةً ما ولكنَّهُ يرجَّح ان دعاوي هذه الكنائس رُفعت الى قضائهِ بارادة اصحابها الذين اختاروا القديس كحكَم يفضّ مشاكلهم على نوع حبي

الّا ان الخطوة العظمى التي خطاها اساقفة القسطنطينيّة في ترويج مطامعهم انّما كانت في آخر المجمع الرابع كما سبق القول. وذلك ان الاساقفة كانوا اجتمعوا في خلقيدونية سنة ٤٥١ وعددهم ينيف على ٦٠٠ فحرموا اوطيخا ورذلوا قولهُ في انّ للمسيح طبيعة واحدة وشهدوا لرئاسة الكرسي الروماني شهادة جليلة فانهم اذ سمعوا رسالة لاون الى آباء المجمع صرخوا بصوت واحد: « ان بطرس تكلم بفم لاون » ثم ارسلوا اعمال المجمع بعد انتهائهِ الى الحبر الرومانيّ ليثبتهُ بسلطانهِ الاسمى (βεβαίωσιν τε καὶ συγκατάθεσιν)

الّا ان مئتين من هؤلاء الاساقفة اجتمعوا يوماً على غير علم القصّاد الرسوليين وبانفراد عن بقيّة الآباء ووضعوا قانوناً لتقديم الكرسي القسطنطيني على الكرسيَّين الاسكندري والانطاكي مستندين في هذا العمل الى قانون المجمع السابق ذكرهُ الذي لم يصادق عليهِ الاحبار الرومانيّون. فلمّا علم القصّاد الرسوليّون بما جرى خفيةً وبعزلةٍ عن بقيّة اعضاء المجمع

احتجوا على الاساقفة الذين اتوا مثل هذا العمل المنافي لقوانين المجامع واخبروا البابا لاون بما حدث. فأبطل الحبر الروماني ما أبرم في هذه الجلسة الخفيّة من الاحكام لانهُ رآها مجحفة بحقوق الكرسيَّين الاسكندري والانطاكي ومضادّة للمجمع النيقاوي بل لام قصَّاده اذ تساهلوا فسمحوا لاناطوليوس ان يجلس في المجمع فوق صاحبي هذين الكرسيَّين وكتب للملك مرقيان والقديسة بولخاريا قرينتهِ مشدّدًا النكير على ما فعلهُ اناطوليوس واشياعهُ دون رضى الكرسي الرسولي (١. فاضطرّ اناطوليوس الى ان يستميح عذرًا من لاون البابا ويرذل ما جرى في المجمع مدَّعيًا انَّ الامر صار بسعي قسم من الاكليروس دون مشيئتهِ (٢. ولذلك لم تدوَّن اعمال هذه الجلسة في اكثر نسخ اعمال المجمع الخلقيدوني ليس فقط في النسخ اللاتينيَّة بل ايضًا في النسخ اليونانية كنسخة يوحنّا الانطاكي والنسخ العربيَّة كنسخة يوسف المصري فلا ترى في هذه النسخ البند الثامن والعشرين الذي خوَّل الكرسي القسطنطيني هذه الامتيازات الفريَّة المشتبه فيها (٣

امَّا خلفاء اناطوليوس فكانوا يتقلبون مع الرياح فمنهم من يرضى بحكم لاون فلا يتجاوز حدوده كجنّاديوس القديس ومنهم من يستند الى الاعمال المزيَّفة التي سبق ذكرها كاقاقيوس الذي ناصب الكرسي الرسولي وضلَّ عن سواء السبيل ومات في غروره سنة ٤٨٨. وممَّن استغواهم روح الطمع يوحنا المعروف بالصوَّام فانَّهُ شرع ان يلقّب نفسهُ بالبطريرك المسكوني فكتب اليهِ القديس غريغوريوس الكبير يؤنّبهُ على استعمال مثل هذه الالقاب المشعرة بالجاه والفخفخة بينا هو نائب المسيح وخلف هامة الرسل لا يسمي ذاتهُ سوى « عبد عبيد الله ». الَّا ان اصحاب القسطنطينية لم يكونوا ليضبطوا عنان طمعهم بل لم يزالوا يسعون في توسيع نطاق سلطتهم بما امكنهم من افانين الحيل في جهات إليرية والبلغار والصرب والروس. وكان احبار الكنيسة مع ذلك يعاملونهم معاملة الاب الشفوق ويراعون جانبهم ممتثلين بعمل الرب (متى ١٢:

---

١) راجع هذين الكتابين في مجموع الاباء اللاتينيين لمين (في المجلد ٥٤ ص ١٠٠٠ و١٠٢٩)
٢) مكتوب اناطوليوس في المجموع السابق ذكره (ج ٥٤ ص ١٠٨٤)
٣) راجع التاريخ الكنسي لدولنغر وتاريخ المجامع لهفيلي (ج ٣ ص ١٢٢)

٢٠) الذي لم يكسر القصبة المرضوضة ولم يطفئ الكتَّان المدخّن بل ربَّما طالبوا عن حقوقهم امام الملوك ودافعوا عن المظلومين منهم كما فعل البابا نيقولا الاول بالقديس أغناطيوس لمَّا غصب كرسيَّهُ فوطيوس. وهذا التعطُّف في ائمة الاحبار حملهم على ان يتسامحوا على تمادي الزمان بالرتبة البطريركية لاصحاب الكرسي القسطنطيني رجاء منهم ان يزيدوا تعلقًا بالوحدة ولا ينفصلوا عن حظيرة المسيح الواحدة وراعيها الواحد. ألّا ان شيطان الشقاق غلب اخيرًا على بطاركة القسطنطينيَّة فحاد بهم عن المناهج وقد هدى الله مع ذلك البعض منهم حينًا بعد حين فاتّوا بسلطة الكنيسة الرومانية نخصُّ منهم بالذكر ذلك الشيخ المفضال والبطريرك الجليل يوسف الثاني الذي مات في فلورنسة ميتة الابرار بعد أن اقرَّ جهارًا بايمانه وصادق على كل تعاليم الكنيسة الرومانيَّة. هو واساقفتهُ اللهمَّ الَّا واحدًا منهم مرقس الافسي

وما قلناهُ عن الكرسي الاورشليمي والكرسي القسطنطيني يؤيدهُ كتبة العرب انفسهم فان المقريزي (راجع المشرق ٥: ٢٢٤) وابن حوقل (ص٢٢٠) والاصطخري لم يذكروا القسطنطينيَّة في جملة الكراسي البطريركية. والمسعودي (ص٢١٨) وابن حوقل (ص٢٢٠) يرويان ان كرسي بيت المقدس لم يكن من اركان النصرانية وانما احدثوهُ لتعظيم بيت المقدس

*

وهنا لا بُدَّ ان نضيف ذيلًا الى ما سبق لتعريف جهَّة البطريركيَّات فاول ما ظهر منها البطريركيَّة او الجاثليقيَّة النسطوريَّة لمَّا انفصل اصحابها في القرن الخامس عن الكنيسة الكاثوليكيَّة ونبذوا طاعة البطريرك الانطاكي الذي كان اسقف المدائن تحت حكمه

وفي هذا الجيل الخامس ظهرت البطريركيات اليعقوبيَّة واوَّلها البطريركيَّة الاسكندريَّة القبطيَّة التي تنتمي الى ديوسقورس المبتدع. والثانية البطريركية السريانيَّة الانطاكيَّة وصاحبها ساويرس الدخيل. والثالثة البطريركيَّة الارمنية التي خرجت عن وحدة الايمان سنة ٥٥٠ (راجع المشرق ٣: ٥٠) وجعلت كرسيَّها بعد مدَّة في اجمياطين. ثمَّ انقسمت هذه البطريركية الى خمس بطريركيَّات وهي اجمياطين وأغتمار عند بحيرة وان (١١١٣) والقدس الشريف (١٣١١) وسيس في قيليقية (١٤٤١) والقسطنطينية (١٤٦١)

وفي القرن السابع ظهرت البطريركية المارونية الانطاكية (راجع سلسلة البطاركة المارونة للدويهي في المشرق ١: ٢٤٧ الخ)

ولمَّا رجع الملكيُّون والكلدان والسريان والارمن والقبط الى طاعة الكرسي الرسولي خصَّهم الاحبار الرومانيُّون بكراسي بطريركية فللملكيّين والسريان انطاكية وللقبط الاسكندريَّة وللكلدان بابل وللارمن قيليقية

وكذلك للكنيسة الرومانية ثلاث بطريركيَّات شرفية وهي انطاكية والقدس والاسكندريَّة يرتقي عهدها الى ايام الصليبيين. ألا ان كرسي القدس قد عاد اصحابهُ فتولَّوا ادارتهُ منذ خمسين سنة على عهد الطيّب الذكر يوسف ڤالركا

ولها اربع بطريركيات أُخر صغرى الاولى في البندقية أُنشئت سنة ١٤٥١. والثانية في لشبونة أُنشئت سنة ١٧١٦. والثالثة في غوا من الهند الشرقية منشأها سنة ١٨٨٦. والرابعة في طليطلة أُنشئت حديثًا للهند الغربية سنة ١٨٩٨

وقد وجد في الكنيسة الكاثوليكيَّة مدةً بعضُ بطاركة كبطرك اكويلية في القرن الثامن وبطرك الحبش في القرن السادس عشر. وكذلك في الكنائس المنفصلة بطركيَّة ايك (Ipek) وذلك من سنة ١٣٥١ الى سنة ١٧٦٥ حيث أُلغيت بمساعي بطريرك الفنار وبطركية كرلوڤيتس أُنشئت سنة ١٨٤٨ في النمسا

فممَّا تقدم ترى ان البطريركية ليست رتبة الهية وانَّما الكنيسة انشأتها وتصرَّفت فيها كيف شاءت ولذلك ترى عدد البطريركيات في الكنيسة الكاثوليكية وحدها تناهز العشرين نال اصحابها من فضل الاحبار الرومانيّين هذه المنزلة الرفيعة والمقام الجليل. وفي مقالة أُخرى نبيّن ان شاء الله ما هي حقوق البطريركيَّات وامتيازاتها مع بيان سلسلة اصحابها (ستأتي البقيَّة)

المالية العثمانية

للاديب يوسف افندي ف. ضاهر

بين ماليَّات الدول التي تسترقف النظر في تحسنها السريع نعدُّ ماليَّة الدولة العلية التي توصَّلت في مدَّة عشرين سنة الى درجة من اليسر يرتاح اليها الوطنيُّ الصادق

ويشتهي بلوغها كثير من الامم . ولا يسعنا عند الالماع الى هـذا اليسر ألّا الإقرار بفضل جلالة مولانا السلطان الاعظم وذلك لمّا وكل في سنة ١٨٨١ الى ادارة الديون العمومية توزيع اقساط مالية الدولة العلية وفوائدها كما سنراه[١]

١٨٧٥—١٨٨٢

في ٦ تشرين الاول سنة ١٨٧٥ اي قبل جلوس الذات الشاهانية اعزّها الله على الاريكة السلطانية صدر في جرائد الاستانة اعلامٌ مفاده انَّ في برنامج الدولة عجزًا يبلغ ٥ ملايين من الليرات العثمانية . فهذا الخبر القى القلق في افكار حاملي السندات العثمانية وخصوصًا لان فقرة ثانية كانت مضافة على الاعلام مؤداها ان في مدة ٥ سنوات اولها ٦ تشرين الاول سنة ١٨٧٥ لا يُدفع من الأقساط والفوائد على الدينَين الخارجي والداخلي ألّا نصفها واماً النصف الثاني فيعوَّض عنهُ بسندات جديدة تكون فائدتها السنويَّة ٥ بالمائة وكانت قيمة الفوائد والاقساط اذ ذاك ١٤ مليون ليرة عثمانية او ٣١٩ مليونًا من الفرنكات

لكن هذه الحال لم تتجاوز مدتُها اواسط سنة ١٨٧٦وبقيت على ذلك حتى أُبرمت معاهدة برلين ومنها اصل ادارة الديون العمومية . فان في البند الـ ١٨ تمام الصراحة بهذا الصدد . فهكذا كانت بداءة إدارة الديون العموميَّة العثمانيَّة سنة ١٨٧٨ وكان من نتيجة حسن التدبير اداء اكثر من ٢٠٠ مليون من الفرنكات لحاملي سندات الدين الخارجي في مدة ٥ سنوات (١٨٨٨—١٨٩٢) ومذ ذاك الحين لا تزال المالية العثمانية في نجاح مستمرّ والبيان في حربها الاخيرة مع اليونان دون عقد قرض ودفعهـا فوائد جديدة للسكك الحديديَّة الحديثة

وفي ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٧٩صدرت ارادة سنية قاضية بتعيين ١,٣٥٠,٠٠٠ ليرة عثمانية لدفع اقساط الدينين الداخلي والخارجي وفوائدهما خاصة منها ١,١٠٠,٠٠٠ ليرة بالمصارف العثمانية التي كانت المساعدة على اداء كوبون ١٨٧٥—١٨٧٦ وعلى تحسين امور الدولة ثمَّ جرى بعض التعديل في ادارة الديون العمومية ووُزّعت الايرادات على هيئة خصوصية لضمانة اموال الدائنين . فخصّص اذ ذاك للفوائد والأقساط

١) كان معظم استنادنا في كتابة هذه المقالة على فصل نشره المسيو ادمون تيري رئيس تحرير « الاقتصاد الاوروبيّ »

١,٨٧٠,٠٠٠ ليرة عثمانيـة بدلًا من ١,٣٥٠,٠٠٠ واختصت المصارف العثمانيـة بـ ٥٩٠,٠٠٠ ليرة بدلًا من ١,١٠٠,٠٠٠

فدُعي دين المصارف العثمانية سنة ١٨٨١ « القرض الممتـاز » واضحت سنداتهُ وعددها ٣٧١,٣٦٣ المصـدرة سنة ١٨٨٢ بسعر ٤١٥ فرنكًا وفائدة سنويَّة ٥ بالمائة يجري تسديدها بسعر اصدارها الاسمي في مدة ٢٤ سنة انتهاؤها سنة ١٩٠٦. واما اقساط هـذا الدين وفوائده فامست مكفولة بتخصيص القروض لها من الايرادات وقيمتهُ ٥٩٠,٠٠٠ ليرة عثمانية كما تقدَّم. لكن هذا الدين تحوَّل سنة ١٨٩٠ الى قرض ممتاز بفائدة ٤ بالمائة يسدَّد في ٤١ سنة اي في ١٣ ايلول سنة ١٩٣١ وقيمتهُ الاسميَّة ٨,١٧٠,٠٠٠ ليرة عثمانية. فبواسطة هذا التحويل امست القيمة الواجب دفعها اقساطًا وفوائد ٤٣٠,٥٠٠ ليرة بدلًا من ٥٩٠,٠٠٠ وفي ١٤ ايلول سنة ١٩٠٠ كان الباقي من سندات هذا القرض ٣٤٣,٨٦٢ سندًا

وفي الارادة السنية المؤرخة في ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٨١ والمعروفة في عالم المالية باسم ارادة محرَّم صار فصل الخطاب. ومنطوقها الاتفاق بين الدولة العليـة ومدانيها على تصفية الدين كما سيجيءُ

وفي هذا المقام يجدر بالذكر ما لاقتـهُ ادارة الديون العمومية من عناية جلالة المتبوع الاعظم ووزرائهِ الفخام لقضاء مهمتها وبهذا تنطق علنًا ادارة الديون نفسها

واما ارادة محرم فانها شملت القروض العشرة التي عقدتها الدولة منـذ ١٨٥٨ الى ١٨٨١ ولم تستثنِ سوى الاربعة القروض المضمونة بمخصَّصات مصر وتضمينات الحرب الروسية والدين السائر

بيان القروض التي شملتها الارادة السنية

بتاريخ ٢٨ محرَّم سنة ١٢٩٩ (٨ و ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٨١)

السنة	فرنكات	سعر الاصدار	الفائدة
١٨٥٨	١٢٥,٠٠٠,٠٠٠	٧٦	٦
١٨٦٠	٥٠,٩٣٠,٥٠٠	٦٢$^1/_2$	٦
١٨٦٢	٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٦٨	٦
١٨٦٣—٦٤	٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٧٠	٦

السنة	فرنكات	سعر الاصدار	الفائدة
١٨٦٥	١٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٦٦	٦
١٨٦٩	٥٥٥.٥٥٥,٥٠٠	٦١.	٦
١٨٧٢	٢٧٨,١٥٥,٠٠٠	٩٨ ١/٢	٩
١٨٧٣	٦٩٤,٤٤٤,٥٠٠	٥٩ ١/٢	٦
الدين السوي	٢,٢٣٩,٨٢٧,٢٥٠	مختلف	٥
السكك الحديدية	٧٩٢,٠٠٠,٠٠٠	٤٣ ٣/٤	٣

ومما تمَّ الاتفاق عليه بين مندوبي كلٍ من الدولة العليَّة ودائنيها جعل سعر وسط للاسعار التي أُصدرت بهـا هذه القروض واضافة ١٠ بالمائة تعويضًا عن الفوائد الغير المدفوعة منذ ١٨٧٦

فهكذا امسى مجموع القروض في آخر سنة ١٨٨١ بعد تحويلها واضافة ١٠ بالمائة تعويضًا عن الفوائد المتأخرة ١١٦,١٣٥,٠٦٢ ليرة عثمانية. واذا اضفنا اليها:

١ً الاربعة القروض المضمونة بمخصَّصات مصر وقدرها ٣٩٤,٩٧٧,٠٠٠ فرنك

٢ً القرض الممتاز ٥ بالمائة وقدره ١٨٥,٦٨٢,٠٦٠ 〃

٣ً تضمينات الحرب الروسية وقدرها ٨٠٢,٥٠٠,٠٠٠ 〃

٤ً الدين السائر وقدره ٣٧٥,٠٠٠,٠٠٠ 〃

بلغ مقدار الدين ١٩٤,٤٣٩,٩٦٦ ليرة عثمانية

فمجموع هذا الدين الناهز مقدار الغرامة التي غرمت المانية بها فرنسة وحسبتها بعدها غير ناهضة لم يؤثّر في الدولة العثمانية بل تركها في مصافّ المديونين القائمين حقّ القيام بما يقتضيه عليهم الواجب

فلاجل استهلاك هـذا الدين المحوَّل خصَّصت الدولة العلية قسمًا من ايراداتها ووكلت الى ادارة الديون العمومية المؤلفة من ٧ اعضاء امر جبايتها حسب منطوق المادة الثامنة من ارادة محرم. وفي المادة السادسة عشرة ملخص امتيازات مجلس الادارة وهي:

« ان المجلس مكلَّف بادارة الايرادات المخصصة دون تداخل من قبل الحكومة التي تستبقي حقها في المراقبة بواسطة مندوب له الحق في صوت شوروي لا غير

« والمجلس له الحق في ادخال الاصلاحات التي يرى فيها الملاءمة دون ان يمسّ

الشرائع الموجودة ودون زيادة في الضرائب على الرعايا العثمانيين ولهُ الحق ايضاً ان يتصرف كيفما شاء باستثمار الدخان والملح بواسطة الرجي وذلك باستشارة الحكومة قبلاً

« ان الحكومة لا حقَّ لها بالغاء ضريبة من الضرائب الممنوح استيفاؤها لحاملي السندات الَّا اذا نالت موافقة اكثريَّة المجلس . لكن هذا اذا تمَّ وتوعهُ لا يمنعها من وضع ضريبة اخرى تقوم مقام الضريبة الملغاة »

والايرادات الممنوحة لاستهلاك الدين المحوَّل تتألف بموجب ارادة محرَّم من حصر الدخان والملح ومن رسم التمغة ومن الضرائب على المشروبات الكحوليَّة وعلى صيد السمك ومن اعشار الحرير في بعض مدن السلطنة ومن جزيتي بلغارية والروملي الشرقيَّة ومن مكوس التنباك ومن الزائد من ايرادات جزيرة قبرس ومن ايرادات الجمارك الممكن الحصول عليها من وراء تحرير المعاهدات التجاريَّة . ولتسهيل جباية هذه الايرادات التي مُنحت لادارة الديون العمومية تعهدت الدولة العليَّة بامداد الادارة بقوة شرائع السلطنة

﴿ حصر الدخان (الرجي) ﴾ تشكَّلت هذه الشركة برأس مال قدره ٤ ملايين و ٤٠٠ الف ليرة عثمانية وقد أصدر ٤٠ بالمائة من رأس المال بأسهم قيمة الواحد منها ٢٠٠ فرنك واما مدَّة امتيازها فثلاثون سنة تنتهي في اول كانون اول سنة ١٩١٣ وتدفع لقاء امتيازها مبلغ ٧٠٠ الف ليرة عثمانية سنويًا وتجعل قسماً من ارباحها مختصاً بادارة الديون العموميَّة وبالحكومة وبالمؤسسين . وقد وزَّعت على المساهمين في العشر السنوات الاخيرة حُصَصاً يبلغ موسطها ١٥,٤٠ عن كل سهم وقد بلغ سعر السهم الواحد من اسهمها سنة ١٩٠٠ : ٣١٣ فرنكاً و١٢ سنتيماً

﴿ حصر الملح ﴾ تستثمر ادارة الدين نفسها كل مالح السلطنة وقد عيَّنت سعر الكيلو من الملح مأخوذاً من المالح ١٥ بارة فكان ايراد الملح ٦١٨,٠٢٩ ليرة عثمانية سنة ١٨٨٢—١٨٨٣ و ٧٥٥,٦٩٣ ليرة سنة ١٨٩٢—١٨٩٣ و ٨١٤,٢٧٠ سنة ١٨٩٨—١٨٩٩ وقد تسنى للادارة تصدير قسم من الملح الى البلقان والهند الانكليزيَّة وشواطئ البحر الاحمر

﴿ المشروبات الكحولية ﴾ يتعلق بادارة الديون العموميَّة رأساً استيفاء الضريبة على

هذه المشروبات فبعد ان كانت ايراداتها ١٧٨,٨٦١ ليرة عثمانية سنة ١٨٨٢—١٨٨٣ بلغت ٢٦٥,٠٦٨ ليرة سنة ١٨٩٨—١٨٩٩

﴿ التمغة ﴾ تلاقي ادارة الديون اكبر المصاعب في جباية هذه الضريبة ومع هذا فانها توصلت الى ايراد يوازي اكثر من ثلاثة اضعاف ايرادها السابق . فبعد ان كان محصول التمغة سنة ١٨٨١ لا يتجاوز ٨٣ الف ليرة عثمانية بلغ سنة ١٨٩٩—١٩٠٠ ٢٣٥,١٦٨ ليرة

﴿ اعشار الحرير ﴾ بلغت هذه المكوس وهي كناية عن ١٠ بالمائة على محصول الشرانق في كافة السلطنة ٩٠,٧١٩ ليرة عثمانية سنة ١٨٩٩—١٩٠٠ بعد ان كانت ١٨,٩٥٢ سنة ١٨٨٢ — ١٨٨٣ وسبب هذه الزيادة تجدُّد في نمو صناعة تربية دود الحرير وخصوصاً في بروسة وازميد حيث بلغت كمية الشرانق ٦,١٤٦,٦٢٠ كيلوغراماً سنة ١٨٩٩—١٩٠٠

﴿ مصائد الاسماك ﴾ تتولى الادارة جباية الرسوم على المصائد التي في السلطنة حتى على تلك التي أُعطيت ضمانة لقرض قدره ٣٠٥ ملايين مارك عُقد في المانية سنة ١٨٨٨ وايراد الادارة الخصوصي من المصائد كان ٢٢,١٣٦ ليرة عثمانية سنة ١٨٨٢—١٨٨٣ واما سنة ١٨٩٩—١٩٠٠ فبلغ ٤٧,٥٤٤ ليرة

﴿ الاموال المقرَّرة ﴾ يُطلق هذا الاسم على جزيتَي الروملي الشرقيَّة وبلغارية وعلى الزائد من ايرادات قبرس وعلى ايراد التنباك واخيراً على كل الايرادات المتأتية عمَّا تؤدّيه ولايات بعض البلاد كسربيا والجبل الاسود واليونان . فهذه الاموال كلها بلغت من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٠٠ : ٥,٣٢٩,٧٢٣ ليرة عثمانية

وقد بلغت الايرادات جميعها من اموال مقرَّرة وغير مقررة في سنة ١٨٩٩—١٩٠٠ ما قدرهُ ٢,٥٩٧,٨٧٩ ليرة عثمانية واذا اسقطنا منها مصاريف السنة نفسها وقدرها ٤٤٣,١٧٧ ليرة بقي ايراد صافٍ يبلغ ٢,١٥٤,٧٠٢ من الليرات العثمانية

*

لا يجمل بنا عند الكلام عن مالية الدولة ان نُغفل القلم عن ذكر السكك الحديديَّة التي باتت من دواعي توفُّر العمران في الممالك المحروسة وهي على قصر خطوطها لم تقصّر في تثمير رؤوس المال التي صُرفت في سبيل انشائها ولا في تكثير الثروة في

الاماكن التي صارت ممرًّا لقطاراتها. والدولة العلية لم تدخر وسعًا في عضدها بالضمانات الكيلومترية التي لا بدَّ منها في البداءة. وكل يوم نرى طلبًا لمدّ خطوط جديدة كان اهمّها في هـذه الاونة الاخيرة خط بغداد الذي افاض في الكلام عنهُ حضرة استاذنا الاب هنري لامنس في المشرق (٥: ٢٤١)

فبموجب البيان الاخير الذي وضعهُ المسيو الكسيس راي مدير السكة الحديدية في سلانيك ونشر البشير بعضـهُ في عدده ال ١٥٢١ نرى ان طول الخطوط الجاري استثمارها بلغ ٤,٥٠٥ كيلومترًا سنة ١٩٠٠ بعد ان كان ٤,٢٣٩ كيلومترًا سنة ١٨٩٦ وان الخطوط المتمتعة بضمانة كيلومترية كان طولها ٢,٢٧٠ كيلومترًا سنة ١٩٠٠ اي بزيادة ١,١٩١ كيلومترًا عن سنة ١٨٩٦ وهي زيادة جديرة بكل اعتبار

وقد بلغ الدخل القائم للسكك الحديديَّة ٣٥,٨٨٦,٠٠٠ فرنك سنة ١٩٠٠ وامَّا الضمانات الكيلومتريَّة التي دفعتها الدولة في السنة المذكورة فكانت ١٨,٧٥٥,٠٠٠ من الفرنكات بدلًا من ١٤,٧٥٠,٠٠٠ فرنك سنة ١٨٩٦

ومجموع الايراد كان سنة ١٩٠٠ كما يأتي:

السكك الشرقيَّة	١٠,٠٣٢,١٦٢	فرنكًا
سلانيك استانة	١,٨٢٥,٦٣٢	〃
سلانيك موناستير	١,٦١٠,٤٩٦	〃
سكك الاناضول	١١,١٧٦,٠٠٠	〃
سكة ايدين	٧,٠٢١,١٢٥	〃
بيروت الشام حوران	٢,٢١٩,٢٩٤	〃
يافا والقدس	٧٢٨,٨٥٢	〃
سكة مرسين	٥٢١,٩٢٥	〃
سكة مودانية	٢٥٤,٢٤١	〃

وبما ان خط بيروت الشام حوران لهُ اقرب علاقة بنا نحن السوريين نستميح القراء عذرًا في اشباع الكلام عنهُ دون سواهُ

لم يخطر ببال منشئ هذا الخط ان الخسارة ستلحقهم بدلًا من الربح. وكانوا قد بنوا امالهم على ارباح طريق المركبات القديمة بين بيروت والشام التي كان تأسيسها سنة

١٨٥٧ ولم يتنبطوا عن انشاء الخط وطوله ٢٥٠ كيلومترًا دون ضمانة كيلومترية وكان ذلك سنة ١٨٩١ . لكنهم ما كان اشد خيبتهم بعد الامتحان فانَّ آمالهم لم تتحقق

وفي ٢١ حزيران سنة ١٨٩٣ طلبت الشركة امتيازًا آخر بانشاء خط طوله ٥٥٠ كيلومترًا يوصل الشام بحمص وحماة وحلب ثم بالفرات وقد تعهّدت الدولة بدفع ضمانة كيلومترية قدرها ١٢,٥٠٠ فرنك تُؤخذ من اعشار الوية حوران وحماة وعكا واللاذقية والشام وطرابلس الشام

لكن الخسائر التي لحقت الشركة من وراء استثمار خط بيروت الشام حوران حملتها على طلب تأجيل العمل في خط الشام فبيره جك مدة ٥ سنوات ابتداؤها اول سنة ١٨٩٧ متعهدة بالعود الى الاشغال بموجب شروط الاتفاق المعقود سنة ١٨٩٣ اذا ثبت ان ايراد الاعشار المختصة بضمانة الخط الثاني كافٍ لضمانة ١٢,٥٠٠ فرنك عن كل كيلومتر

واما الشركة فانها لمَّا عجزت عن القيام بفوائد واستهلاك سنداتها التي اصدرتها سنة ١٨٩٢ لانشاء الـ ٢٥٠ كيلومترًا الغير المضمونة وُضعت تحت التصفية في ١٨ حزيران سنة ١٩٠٠ وهكذا بعد اتفاق صادق عليه مجلس التجارة في باريس صفَّت الشركة كافة ديونها واعطت حاملي سنداتها القدماء سندات جديدة فائدتها ١٥ فرنكًا في السنة . لكن الشركة الجديدة التي اتخذت اسم الشركة العثمانية للخط الحديدي بين بيروت والشام وتمديداته لا تضطر الّا الى توزيع الصافي من ايرادها سنويًا على السندات الجديدة

وبموجب اتفاق أُبرم في ١٥ ايار سنة ١٩٠٠ فُوّض الى الشركة بناء الخط بين رياق وحماة حالًا وطوله ١٩٢ كيلومترًا ولهذا الخط منحت الدولة ضمانة كيلومترية قدرها ١٥ الف فرنك وهذه القيمة يمكن اسقاطها الى ١٢,٥٠٠ فرنك اذا اتصل هذا الخط بخط بغداد بعد وصوله الى حماة

واما السندات الجديدة فعددها ٨٨,٥٤٣ سندًا ممتازًا بفائدة ٤ بالمائة والضمانة التي ذكرناها آنفًا تؤخذ من اعشار الالوية التي اتينا على ذكرها وقد وُكل الى ادارة الديون العمومية جباية هذه الاعشار وتوزيعها بحسب الشروط المقرَّرة . والمأمول ان هذا الخط الجديد سيكون من ورائه فائدة كبرى تنفي الخسائر التي جرَّ اليها الخط القديم

واما سكة بغداد والسكة الحجازيَّة فانهما سيكونان ايضاً من اعظم العوامل على انفساح العمران وزيادة الثروة في القطر السوري. فهذان الخطان لا يلبثان بعد تامهما ان يفوقا في اهميتهما كافة الخطوط القديمة

نقف عند هذا الحد من الكلام عن مالية الدولة العليَّة وعن بعض نتائج الاعمال الصائبة التي اتتها حكمة جلالة مولانا السلطان الاعظم التي امست حاجزاً متيناً في وجه العاذلين من ذوي المآرب العمياء. وكفانا برهاناً اسعار القراطيس العثمانية في آونة كهذه ترى فيها الدول المعقود لها لواء الثروة والانبساط في الثقة المالية تتقهقر تقهقراً محسوساً في قيمة اوراقها. فان قيمة دين الدولة المحوَّل بعد ان كان ١١٦،١٣٥،٠٦٢ ليرة عثمانية سنة ١٨٨١ امسى ٩٤،٧٠٩،٣٠٨ ليرة سنة ١٩٠١. واما اسعار القراطيس فبعد

س ف س ف س ف

ان كانت ١٥،٨٠ و١٤،٥٠ و١٤،٥٠ سنة ١٨٨٥ للثلاثة الابواب التي لم يتمّ استهلاكها اضحت ٥٠،٨٠ و٢٧،٦٥ و٢٥،١٠ سنة ١٩٠١

فمن هذه الارقام يستدلُّ على ان الدولة العليَّة باتت بحكمة الذات الشاهانية ايَّد الله شوكتها في مأمن من العسر المالي الذي مدَّ رواقهُ فوق كثير من الممالك التي تدعي بكثرة اقتصاديها وحنكة رجالها. واذا جرى التحوير الذي عزم جلالة السلطان الاعظم على ادخاله في جباية الاموال الخارجة عن ادارة الديون العمومية عظم املنا في المستقبل وتأكدنا ان السكك الحديدية وبالحري هاته العروق الحيَّة في جسم السلطنة سيزداد بها العمران والثروة وتدرّ على الخزينة الايرادات التي يسميها الاقتصاديون غير منظورة ما يدعونا الى الثقة بازدياد عزّ الدولة وفلاح رعاياها ومتانة ماليتها. وفَّقها الله الى ما فيه خير البلاد

زهرة لبنان

في ترجمة راهب كفيفان

لحضرة الاب الفاضل الجليل نعمة الله الكفري الرئيس العام على الرهبانية المارونية البلدية

طالما سمعنا ان زهرة القداسة التي كانت في القرون النصرانية الاولى زاهيةً نامية في الاصقاع الشرقيَّة ذبلت بعد ذلك وذوى رونقها كأنَّ ريح البدع لفحت فجففتها.

على انَّ الدين الكاثوليكي بعد انتعاشهِ في اقطارنا مدَّة القرون الاخيرة لم يخلُ من نفوس طاهرة سامية الفضل نمت في تربتهِ الخصبة فعطَّرت بارجيح فضائلها اوطاننا العزيزة. وقد رأى لبنان من هذا القبيل عجائب قرَّت لمنظرها عيون سكانهِ فمجَّدوا الله في قديسيهِ

وممَّن امتاز بين هؤلاء الافاضل رجلٌ بارٌّ لا يزال يذكرهُ بالخير كلُّ من عرفهُ وقد شاع اسمهُ في كل انحاء لبنان حتى ان الناس لا يدعونهُ منذ نيف ونصف قرن الَّا قديس كفيفان. ولمَّا كان الله قد اتاح لنا ان نشاهدهُ مدَّةً ونرى فضلهُ رأيَ العيان فجمنا عودهُ وسبرنا غورهُ وأنسنا من برارتهِ وصلاحهِ ما لم يسطَّر الَّا في تراجم اوليائهِ تعالى احببنا ان ندوّن على صفحات مجلة المشرق لمةً من سيرتهِ لئلا يبقى هذا المصباح المنير محجوبًا تحت المكيال بل يُهتدى بنورهِ وقصارى بغيتنا ان تبعث هذه الاسطر في قلوب الجمهور الرغبة في اقتفاء آثارهِ

*

ولد الاب نعمة الله بن جرجس كسَّاب في قرية حردين من معاملة البترون سنة ١٨٠٨ ودُعي اسمهُ في المعموديَّة يوسف وكان ابواهُ من اتقياء الناس ارشداهُ الى الفضيلة بالقول والمثل منذ نعومة اظفارهِ وقد وجدا في قلب ولدهما تربةً حسنة معدَّة لقبول بذر التقى وزرع الكمال. فنشأ الولد وكل جوارحهِ مائلة الى العبادة وامور الآخرة فكان يحب العزلة عن اترابهِ ويحيد عن ألعابهم ويرتاح الى الاعمال الروحيَّة لاسيَّما حضور الذبيحة الطاهرة

وكان في ذلك الوقت عدد المدارس قليلًا لا يرضع افاويق العلوم الَّا قسم صغير من الاحداث. وكان للرهبان البلديين في دير حوب ليس بعيدًا من تنورين مدرسة للصغار تُدرس فيها المبادئ فارسل ابو يوسف ولدهُ اليها ليتخرَّج فيها على القراءة فما فتئ ان اتقنها في اللغتين العربيَّة والسريانية

فانتدبهُ حينئذٍ والدهُ الى مساعدتهِ في اشغالهِ من حراثة ارزاقهِ والقيام بمهامّ بيتهِ فكان الولد طوع بنانهِ مثابرًا على الشغل بنشاط عجيب غير انهُ كان يسمع في باطنهِ صوت الله يدعوهُ الى الترهُّب. فلمَّا تحقَّق دعوتهُ تعالى هجر كل الامور العالمية وترك كلَّ ما لهُ ليتبع الرب وكان بلغ اذ ذاك السنة العشرين من عمرهِ

فذهب الشاب الى دير قزحيا وطلب الانتظام في سلك الرهبانيَّة البلديَّة . وكان يترأَسها في ذلك العهد رجل ذو فضل غزير وهمَّة قعساء وهو الاب اغناطيوس بُليبل الذي دبَّر شؤون هذه الرهبنة مدة نحو ثلاثين سنة فبلَّغها الى مقام رفيع ادبيًا وماديًا. فاجاب الى ملتمس الطالب لما تفرَّس في ملامحه من حسن الطويَّة وسذاجة الطباع ودعاهُ في الرهبانيَّة باسم نعمة الله وعُرف مذ ذاك الحين بنعمة الله الحَرديني

فما دخل الاخ الجديد في عداد المبتدئين حتى جعل نُصب عينيهِ مثال المسيح ليطأ مواقع قدميهِ ويتسم بسيماه فكان منذ اول اَيامهِ مرآةً لكل الفضائل وقدوةً لجميع اخوانهِ . وكان قلبهُ يأنس الى مناجاتهِ تعالى حينًا بالصلاة العقلية وحينًا بالصلاة اللفظية يحيي الليالي بتمامها في الكنيسة وكانت محبَّتهُ لسرّ القربان الاقدس عظيمة يقضي بازائهِ ساعات طوالًا لا يبتعد عنهُ الَّا بامر رؤسائهِ . وكان اذا خرج يقف في اروقة الدير غافلًا عن حواسهِ مشغولًا بهذيذ القلب يتنهَّد كانهُ يبغي تبريد حرقة قلبهِ . وهكذا صرف المبتدئ الفاضل سنتي التجربة بممارسة كل اعمال الصلاح فالبسهُ الاب مكاريوس وادي شحرور رئيس دير قزحيا الاسكيم الرهباني سنة ١٨٣٠

ثم أُرسل الاخ نعمة الله بعد ذلك الى دير مار قبريانوس كفيفان في بلاد البترون ليقتبس في مدرستهِ العلوم اللازمة للدرجة الكهنوتية المقدسة فباشر دروسهُ فيها مدةً بغيرة عظيمة الَّا ان نشاطهُ في حفظ الرسوم الرهبانية كان اعظم وقد ادَّى بهِ تدقيقهُ في صيانة القوانين الى الوسواس حتى اضطرَّ الامرُ رؤساءَهُ ان يفصلوهُ عن الدرس ويرسلوه الى دير مار موسى الحبشي في المتن لترويح النفس . ولمَّا كان الاخ راهبًا مطيعًا جرى بكل سذاجة على اوامر آبائهِ الروحيين فنجا من الوساوس التي اقلقتهُ وامكنهُ ان يعود الى دروسهِ بهمَّة جديدة فتقدَّم فيها على جميع اخوتهِ حتى ان الرهبان الدارسين معهُ كانوا يقصدونهُ ليستفيدوا من شروحهِ ويتلقَّنوا منهُ ما فاتهم من دروس المعلّم . وكان مع ذلك يزاول الخياطة بامر رؤسائهِ ولا يُهمل شيئًا من فرائض الدير ورياضات الحياة النسكية

ثم انهى دروسهُ وتقدَّم عنها فحصًا اجاد فيهِ واكتسب ثناء الفاحصين فرُقي الى درجة الكهنوت بوضع يدي الحبر الجليل المطران سمعان زوين النائب البطريركي بامر غبطة السيد البطريرك يوسف حبيش وتمَّ ذلك سنة ١٨٣٣ وكان للاخ نعمة الله من العمر ٢٥ سنة

فتقدَّم المرشح لهذه الرتبة العظمى وقبلها بنقاوة سماويَّة وتقوى فائقة واخذ مذ ذاك اليوم يعيش وهو بالملاك اشبه منهُ بالانسان فكان جلَّ عنايتهِ ان يدارس الابرار القدسة على مثال اولياء الله بحرارة ونشاط وعبادة ووقار. ولم يكتفِ لذلك بان يبالغ في مباشرة الاعمال التقويَّة وممارسة الفضائل الرهبانية بل كان يستعدُّ لتقدمة الذبيحة الطاهرة استعدادًا بالغًا بالتأملات والقراءة الروحيــة وزيارة القربان الاقدس. ومن جملة هذه الاستعدادات انهُ كان يعترف يوميًا بخطاياهُ وقد واظب على ذلك ما امكنهُ الى نهاية حياتهِ مع ان مرشديهِ لم يجدوا فيهِ على الغالب مادَّةً كافيةً للحلّ.

وكان لا يشرع في تقريب القربان الَّا اذا انتهى منــهُ اخوتهُ القسوس وحضر قداديسهم فيتولَّى هذا العمل العظيم عند ضحى النهار. وكان يقضي في ممارستهِ نحو ساعة كاملة وهو في اثنائهِ يتلهَّب حبًا بربّهِ تلوح على وجهِ امائر الفرح وتظهر في كل شخصهِ سمات التقى والورع. وكان اذا فرغ من خدمتهِ جثا على ركبتيهِ امام القربان يشكر ويهــذُّ في مناجاة ربّهِ ويتلو الوردية المقدسة كاملة إمَّا وحده ُ واما في صحبة اخوتهِ الرهبان وذلك بصوت جهور يتدفَّق رقةً وتخشعًا مع دالَّة عظمى بنويَّةٍ نحو مريم ام الله. وكان يبقى طاويًا الى الظهر لا يذوق لماظًا حتى في ايَّام الآحاد والاعياد. فمن ثمَّ يكون قضى صائمًا مدة كهنوتهِ كلها اي خمسًا وعشرين سنة بتمامها

*

وفي حياة الاب نعمة الله التي قضاها في الرهبانيَّة بعد كهنوتهِ ثلاثة اطوار امتاز فيها كلّها بسموّ فضلهِ وعظم فضائلهِ. فالطور الاول يشمل قسم حياتهِ التي صرفها مرؤوسًا في ديورة رهبانيَّتهِ. والطور الثاني يحتوي زمان مدبَّريَّتهِ. والطور الاخير يتضمَّن رئاستهُ على الرهبان الدارسين في دير كفيفان

كان رجل الله يحب ان يبقى خاملًا تحت طاعة رؤَسائهِ لا يفكّر سوى في امر خلاصهِ دون ان يتحمَّل عبء المسؤوليَّة عن نفوس غيرهِ. وقد اشتهر في ذلك الوقت بحبّهِ للشغل. فانهُ مع براعتهِ في الخياطة كان اتقن فنَّ تجليد الكتب. وكان يزاول هذه الصناعة حتى بعد انتخابهِ الى وظيفة مدبّر في رهبانيَّتهِ. وكان اذا حصل على شيء من شغل يدهِ حملهُ الى رئيسهِ ليتصرَّف بهِ في شؤون الرهبان وان سمح لهُ الرؤساء بان يصرف شيئًا منهُ كان يبتاع صورًا وآنية وحللًا كهنوتيَّة يوزّعها على كنائس الديورة

ليزيد بذلك رونقها وتنمو عبادة المؤمنين للقربان الاقدس

ومما امتاز به هذا البار محبتهُ للعيشة الاشتراكية وتجردهُ عن روح العالم فانهُ كان لا يحيد عمَّا يسنُّهُ القانون لجمهور الاخوة بل يجري عليه بكل تدقيق. وكان يداوم السكنى في اديرة الرهبانية دون ملل لا يرتاح الى معاشرة العالمين لئلا يعدلوا به عن اعمالِ التقوى واتقان رياضاتهِ الروحية. اما اهلهُ واقاربهُ فكان كفر بهم كفرًا تامًا لا يفتكر فيهم الَّا بصلاتهِ وبعد ترهبهِ لم يدخل بيت ابيهِ سوى مرة واحدة بامر الطاعة وذلك لمَّا انتهى من امتحانات الابتداء وذهب لمباشرة الدروس بعد زمن قليل من ترهبهِ. وهي الدفعة الواحدة التي فيها رقد خارج ديرهِ. ولم يرضَ ان يقبل شيئًا من اهلهِ وكانوا اذا اتوهُ بشيء. واكرهوهُ على اخذهِ وزَّعهُ على اخوتهِ برضى الرئيس بل كان يودّ لو نسيهُ اقاربهُ وكان لا يدعهم يزورونهُ الَّا نادرًا جدًا ودون مرامهِ فيصرفهم بوجيز الكلام معرضًا عن اللحم والدم وعائشًا كأنهُ مات للدنيا ومن فيها

وكان بقدر ما يفرّ عن العالم ويبتعد عن اصحابهِ يزيد حبًا نحو اخوانهِ. ولم يطلب في محبتهِ لهم غير وجه الله ويخدم الجميع بلا استثناء. وكثيرًا ما كان يحتمل نفسهُ من المشاق ما يخفف بهِ عن عاتق الغير ولكن بفطنة واتضاع. وكانت محبتهُ لجميع اخوتهِ دون محاباة او ميل بشري. الَّا انهُ كان يحب ان يجتمع بالذين يراهم دائبين على التقى ناهجين لسبيل العبادة الحارة لاسيَّا البسطاء والسذَّج لما يجد في حديثهم من الوسائل للتقدم في طريق الكمال مع ارتياحهم للمباحثات في الامور الروحية

امَّا نذورهُ الرهبانية فيشهد كل من عرفهُ انهُ تمَّمها بكل دقَّة. فانَّ طاعتهُ لرؤسائهِ بلغت الى حدّ يندر وجودهُ عادةً في الرهبان فانهُ كان يعتبر صوت رؤسائهِ كصوت الله لا يكاد يشعر بارادتهم حتى يتسارع الى اتمامها وكان معظم خوفهِ ان يخلَّ فيها بشيء. وان زهيدًا

وكان حبهُ للفقر يسطع في كل شخصهِ فانهُ كان يختار مطلقًا ما هو الادنى في الدير لقوتهِ وكسوتهِ وفراشهِ ولا يبقي عندهُ الَّا الاشياء التي لا غنى لهُ عنها ويتجرَّد عن سواها ولو كان كتابًا. وكان اذا انتقل من دير استأذن الرئيس في نقل الحاجات الزهيدة التي يُسمح التصرُّف بها عادةً للرهبان. وكان يأبى ان يأخذ معهُ ولو قلمًا من قصب دون اذن رئيسهِ. وكذلك كان اذا دخل ديرًا جديدًا اطلع الرئيس على ما يكون معهُ لاستعمالهِ الخاص

امّا عفّتهُ فالاحرى ان تُنعت بعفّة ملاك مجرَّد عن الجسم. فانهُ حرصاً على هذه الفضيلة السامية السريعة العطب كان يهرب من كل سبب مهما يراهُ بعيدًا ليتجنَّب كل ما من شأنهِ ان يسلبهُ شيئاً من بهاء الطهارة. وقد بلغ بهِ حبهُ للعفّة ان لا يرفع عينيهِ الى من خاطبهُ فيجاوبهُ مطرقاً محتشماً. امَّا النساء. فكان لا يخاطبهنَّ البتَّة بل كان يفرُّ من ملاقاتهنَّ واذا رآهنَّ عن بُعد مال عن الطريق وان لم يسعهُ ذلك اطرق بنظرهِ الى الارض وربَّما ترجَّل عن مركوبهِ ان كان مسافرًا لئلا يقع نظرهُ على وجه امرأة. وكان لا يسمح لواحدةٍ منهنَّ ان تقبّـل يدهُ لاكرام كهنوتهِ بل كان يرفض ذلك على الرجال انفسهم لاسيما الاحداث غاية ما امكنهُ. وكان رحمهُ الله لا يكتفي بذلك بل احاط سوسن عفّتهِ بسياج الاماتة وشوك التقشفات لم يدع شيئاً ممَّا اعتادهُ القديسون ليصونوا نفوسهم في نقاوتهـا وبرارتها كالصوم والسهر وقهر الذات. ولذلك كنت ترى جسمهُ دائماً مهزولاً شاحب اللون مع انهُ كان صحيح البنية مفتول الخَلق. وقد ادَّى بهِ افراطهُ في قهر جسدهِ الى ان اعتلَّت معدتهُ فصار يقذف في الغالب ما كان يتناولهُ من الطعام. ولعلَّ ذلك نتج لهُ من اكلهِ الطعام البارد المتخلِّف عن طعام الرهبان . ومن اعمالهِ القشفة صبرهُ الجميل على الامراض والاوجاع والبلايا والمصائب التي امتحنهُ الله بهـا فكان يقاسي هذه المحن بالتسليم التام لمشيئتهِ تعالى دون حزن ولا غمّ. وكذلك كان لا يسمع منهُ احد تذمُّرًا من جرَّاء الحرّ والاشغال المضنكة. وكان في زمن الشتاء يتأذَّى كثيرًا من البرد لاستمرارهِ في الكنيسة ليلاً ونهارًا حتى حصل لهُ ورم في رجليهِ وكان مع ذلك لا يريد ان يوقد نارًا او يستعمل غير الكسوة العاديَّة الَّا انهُ كان اذا اشتدَّ عليهِ البرد يصطلي قليلاً بنار اوقدها غيرهُ من الاخوة

*

ولمَّا رأى الرهبان ما بلغهُ الاب نعمة الله من سموّ الكمال كانوا يرغبون لو تقلَّد زمام تدبيرهم وتولى رئاستهم. غير انَّ تواضعهُ كان يحملهُ ان يفرَّ جهدهُ من كل اكرام وكل ثناء بشري. وكان اذا عُهدت اليهِ وظيفة تجلب لهُ بعض الشرف سعى ما امكنهُ ليُعفى منها ولا يقبلها الَّا بامر الطاعة. وكان اذا خاطبهُ احد بشأن الرئاسة العامَّة ويشعرهُ بانهُ سيُنتخب اليها استنكف من ذلك وقال: الموتُ ولا الرئاسة. واذ قدَّم لهُ بعضهم البرهان على انَّ الله يريد منهُ ذلك لخير الرهبانيَّة اجاب: كلا بل ان مشيئة الله

ووالدته ان لا اصير رئيساً . ولما قيل له: وانّى تعرف ذلك؟ اجاب على الفور: ان البتول مريم قالتهُ لي. ومن الاقوال المسموعة من فيهِ: اني اسأل الله ألّا اموت وانا حاصل على وظيفة

وقد استجاب الله طلبهُ في ما يخصّ الرئاسة العامة لكنهُ لم يستطع ان ينجو من رتبة المدبّريّة فانّ اصوات اخوتهِ الرهبان وقعت عليهِ في ثلاثة مجامع ليقوم باعباء هذا المنصب فلم يرَ بدًّا من الاجابة الى امر الله. وما ساعدهُ على قبول ذلك انهُ رأى في هذا المقام وسيلةً لانعاش روح الكمال بين اخوانهِ لما كان في قلبهِ من الغيرة على حفظ الرسوم الرهبانيَّة

ومن ثمَّ كنت تراهُ يفرغ المجهود في معرفة الواجبات التي تفرضها عليهِ وظيفتهُ فاذا ادركها سعى في تتميمها بكل حرص ودقَّة وكان لا يحابي وجه احد فيجري مع الجميع كما ترشدهُ الى ذلك ذمَّتهُ. وكان يبدأ بنفسهِ ليكون للجميع قدوةً صالحة فيسير على سُنن الرهبانية في دقائق فرائضها كما في واجباتها الرؤوسية بل كان يحمّل ذاتهُ احمالًا لم يفرضها على غيرهِ لانهُ على قدر ما كان صارمًا على ذاتهِ كان شفوقًا على القريب

وقد ظهرت في اثناء ذلك غيرتهُ العجيبة في خلاص النفوس فانهُ كان يجدُّ في ان يقتني الجميع عبادةً حارَّة وفضيلة راسخة ويرشد اخوتهُ الى ذلك بكلامهِ وامثالهِ. وكان على حسب امكانهِ يجمع السذَّج والاولاد ليلقّنهم قواعد الدين ويهديهم الى طريق الخلاص. امَّا الفقراء منهم فكان يتصدَّق عليهم بما يُسمح لهُ وذلك بشفقةٍ ظاهرة ومحبَّة عظمى كأنَّهُ يخدم المسيح في شخصهم

ومن آثار غيرتهِ ما فعل لنشر العبادة لمريم العذراء وكان تعبدهُ لها عظيمًا فائقًا. وقد أحبَّ البتول الكليَّة القداسة حبًّا بنويًّا بل كان هائمًا بهذا الحب مغرمًا بهِ. ولذلك كان اسمها المبارك على شفتيهِ بلا انقطاع يستغيث بشفاعتها ليلًا ونهارًا ويشخص الى صورها المقدسة ويتنفَّس الصعداء كأنهُ يريد ان يخرج من سجن الجسد ليتمتَّع برؤيتها في دار الخلود. وكان كلَّما دخل قلَّايتهُ او خرج منها سجد امام ايقونتها وحيَّاها بسلام الملاك وكان يكرّم بنوع خاصّ سرَّ الحبل بها البريء من الدنس وذلك حتى قبل تثبيت الكنيسة لهذه العقيدة سنة ١٨٥٤. وقد جازتهُ البتول عن اكرامهِ لهذا السرّ بان منحتهُ أن يموت في الاسبوع المخصص لذكرهِ

وكما انهُ كان خادماً مخلص الخدمة لمريم كان لا يزال يلهج بمدائحها ويتكلّم عنها ويحرّض الجميع على عبادتها لاسيّما الاشتراك بأخويّة قلبها الاقدس التي كان هو منتظماً في سلكها. وكان يجتهد في توسيع نطاق هذه العبادة بتوزيع اوراق الاشتراك التي كان يرسلها اليه الاباء اليسوعيّون. وقد انشأ هذه الاخويّات في اديرة رهبانيّتهِ بموجب الاذن الممنوح لهُ في ذلك. ومن آثار تعبّدهِ لمريم اشتراكهُ بثوب سيّدة الكرمل وتلاوتهُ للورديّة المقدسة كما مرّ ومطالعتهُ اليوميّة لكتاب امجاد مريم للقديس الفنس دي ليكوري حتى انهُ لم يكن ينفصل عنهُ ويجعلهُ في الليل بالقرب من وسادتهِ ويجد بقراءتهِ حلاوةً تفوق شهد العسل. ومنها ايضاً صيامهُ في كل سبوت السنة وفي برامونات اعياد العذراء وفي الشهر المريمي وكان في الغالب لا يقتات في تلك الأيّام الّا بالزيت او بالخبز وبعض البقول

ولم يكن تعبّدهُ لقلب يسوع الاقدس اقلّ حرارة فانّهُ اشترك ايضاً بشركة هذا القلب الالهي وسعى بنشرها جهدهُ. وهي العبادة التي كانت تحملهُ الى اكرام سرّ القربان حيث قلب الرب لا يزال يخفق حبّاً بالبشر فكان لا يكاد يبتعد عنهُ ليلاً ونهاراً اذ كان هناك كنزهُ الثمين. وقد اكتسب من عبادتهِ هذه اتحاداً عجيباً مع الله فيمشي بحضورهِ اينما سار بل لم تكن الاشغال الزمنية لتصدّهُ عن الوقوف امامهُ عزّ وجلّ والتأمل في صفاتهِ الالهية. وكان ذلك يلوح على شخصهِ كلهِ فمن يرى هدوءهُ وصمتهُ ويسمع تنهّده وزفراتهِ في صلاتهِ عرف للحال انّ افكارهُ وحديثهُ في السماء.

*

وقد خدم الاب نعمة الله الحرديني رهبانيّتهُ بوظيفة أخرى غير المدبّريّة اوجبت لهُ شكر اخوتهِ الحميم وذلك انهُ اختير ليدبّر شؤون الرهبان الدارسين في مدرسة دير كفيفان وذلك مدّة مجمعين اي ست سنوات فقام بهذا الامر احسن قيام. فكان يعتني بتهذيب هؤلاء الشبان وتعليمهم ليكونوا يوماً اهلاً لمساعدة القريب وكان وليّ الله يحرّضهم على ذلك ويعطيهم فيهِ المثل بانكبابهِ على الدرس وقد مهر خاصّةً في علم اللاهوت الادبي فيحلّ بذكاء ما عُرض عليهِ من المشاكل. وكان يعلّم مرؤوسيهِ ألّا يضيعوا وقتهم بما لا فائدة فيهِ وكان هو لا يدع فرصةً من الزمان تذهب سدًى من دون عمل روحي او زمني

الا ان حرصهُ على نمو الدارسين في الروح كان اعظم منهُ على تقدّمهم في الدرس لعلمه بانّ العلم ينفخ ومحبة الله تبني (١ كور ٨: ١) فكان يغرس في قلوبهم كل الفضائل الرهبانية ويتقدمهم في ممارستها حتى انهُ كان لهم انموذجاً حيًا في كل امثال الصلاح". وقد انتشرت ريّا قداسته بينهم بل عند العامّة ايضاً حتى انَّهُ ضُرب بها المثل فكانوا يقولون « انّ فلاناً مثل الحرديني » او « حَرْدَن فلان » اي صار قديساً مثل الاب نعمة الله

ولمّا رأى الله ان عبدهُ نضج كثمرة صالحة آن قطوفها اراد ان يجازيه عن حياته الطاهرة بنقله الى دار الابرار فلمّا كانت اوائل شهر كانون من السنة ١٨٥٨ وهو في دير كفيفان تغلّب عليهِ الداء المعروف بذات الجنب وكان قد بُلي بهذا المرض قبل ذلك فاضحى فيهِ داء مزمناً عجز الاطباء عن شفائهِ الّا انهُ قوي بسبب الريح الشماليّة واستفحل حتى اضطرَّ المريض ان يلازم الفراش فتناوبت عليهِ ادوارهُ حتى أحسَّ بان اجلهُ قد قرب فاخذ يُعدّ نفسهُ للاقاة ديّانهِ فطلب الاسرار المقدسة وقبلها كلّها بعبادة عظيمة وتسليم تامّ للمشيئة الالهيّة وقد اسعد الله الفقير كاتب هذه الترجمة ان يحضر ميتةَ الصالحة مع حضرة مرشده الاب دانيال البشرّاني وبعض الاخوة. فتأثرنا جميعنا ممّا رأيناهُ في هذا الرجل البار من عواطف الحب اليه تعالى. وكان يستغيث بالبتول الطاهرة ويطلب معونتها في ساعة النزاع. ولمّا كانت الحمّى قد اشتدّت عليهِ حتى يغيب عن وعيهِ كنّا نسمعهُ يكرّر صلاتهُ المعتادة « فليكن مباركاً الحبل بريم العذراء البريء من الدنس » وكان اذا انتبه يلتفت الى ايقونتها ويلتمس شفاعتها المشفّعة حتى انهُ يمكن القول بأنّهُ اسلم روحهُ الطاهرة بين يدي هذه الام الحنونة. وكان ذلك في اليوم ١٤ من شهر كانون الاول سنة ١٨٥٨ نصف ليل الثلثاء في أيّام رئاسة الاب لورنسيوس الشبابي على الرهبانيّة. وكان رئيساً على دير كفيفان الاب نعمة الله التولاوي

ودُفن رجل الله بعد جنّاز حافل حضرهُ جمهور رهبان الدير وبعض الكهنة والمؤمنين وكان الجميع يتباركون بتقبيل يديهِ وقد اخذ بعض الرهبان نُتَفاً من شعره وقطعاً من ثيابهِ كذخائر جرى بواسطتها عدّة حوادث غريبة ان لم نقل معجزات باهرة. امّا جسدهُ فبقي بعد دفنهِ مدة تحت الثرى لم يصبهُ الفساد ثمّ أُخرج باذن الرؤساء وجُعل في تابوت خصوصي وُضع حذاء الكنيسة حيث يزورهُ كثيرون من كل مقاطعات لبنان ويستشفعون

به الى الله لنوال الشفاء من اسقامهم ونعماً اخرى شتى

وهنا كنّا نودّ ان نعدّد الآيات التي جرت على يد هذا البار لاننا نعرف منها نحو خمسين آية يطوّل بنا الكلام لو ذكرناها بالتفصيل . ويمنعنا من ذكرها انّ الكرسي الرسولي لم يتولّ حتى الآن الفحص عنها رسميًّا

(المشرق) وقد طلبنا من حضرة الاب المفضال صاحب هذه الترجمة ان يُرسل الينا خبر معجزتين او ثلاث مع شهادات لاناس ثقات فلبى دعوتنا واختار من هذه الآيات ثلاثًا الحقها بامضاء رجال افاضل لا يُشكّ في شهادتهم . فالمعجزة (الاولى) حدثت سنة ١٨٦٣ مع رجل من طائفة الروم الاورثذكس من قرية بتغرين اسمهُ موسى صليبا بقي مكفوف البصر مدّة عشر سنوات ونيّف فذهب الى ضريح الاب نعمة الله وطلب من الله الشفاء من دائهِ بشفاعتهِ فظهر لهُ رجل الله ومسّ بيدهِ عينيهِ فشفاهُ شفاء تامًا وقد عاين هذه المعجزة كل رهبان الدير ويشهد فيها كل اهل المتن والقاطع الذين عرفوا هذا الاعمى زمنًا طويلًا وممن وقّعوا على خبر هذه المعجزة حضرة القس مبارك المتيني الرئيس العام سابقًا على الرهبانية البلدية والملفان بعلمي الفلسفة واللاهوت وجناب الياس نصار شيخ قرية بتغرين وجناب موسى حنا صليبا مختارها وخوريها حضرة الخوري سمعان المرّ والخوري موسى صليبا من كهنة الروم الاورثذكس والخوري يوسف المكرزل خادم بنابيل وغيرهم كثيرون . والمعجزة (الثانية) تمت سنة ١٨٧٨ في رجل مُقعد كسيح عُقلت رجلاهُ الى الوراء بحيث لم يمكنهُ ان يتحرّك بهما مطلقًا وكان اسمهُ ميخائيل كفوري من طائفة الروم الكاثوليك وهو من مزرعة وطا الجوز بين المروج والمتين وقد اقرّ كل اطباء بيروت والجبل انَّ شفاءهُ مستحيل فزار ضريح راهب كفيفان فاتاهُ في نومهِ وبرأهُ فقام في الصباح معافًى شهد ببرئهِ اكثر من مئتي شخص في مقدمتهم الحبر المفضال السيد فلابيانوس كفوري رئيس اساقفة حمص وحماة ومنهم كهنة اجلاء كالخوري يوسف كفوري الاب العام على رهبنة مار يوحنا الشوير والخوري بطرس ابي سليمان المتيني وكيل مطران بيروت والقس مبارك المتيني السابق ذكرهُ والخوري سمعان نجّار . ومنهم اطباء كجناب الوجيه شديد افندي عقل والشيخ ابي امين بشير الجميّل من بكفيا ومنهم رجال افاضل كيوسف افندي شديد الصباغ وناصيف الياس الشوير ودريشا النجار . والمعجزة (الثالثة) اجراها الله على يد وليّهِ سنة ١٨٦٩ وقد تمت في شخص احد الكهنة

الافاضل اذ كان دارساً في دير القطارة وهو حضرة الاب بطرس قيطو اللبناني كان مصاباً بداء النقطة اخذ قليلاً من تراب ضريح الاب نعمة الله الحرديني متبرّكاً به فاذ وافتهُ يوماً نوبة دائهِ وظنّ الحاضرون انها تكون القاضية اذ ظهر لهُ رجل الله وشفاهُ تاماً وعاين شفاءهُ الاب الفاضل الخورفسقوفس ارسانيوس الخوري رئيس مدرسة مار يوحنا مارون حاليًا وحضرة القس مبارك التيني المار ذكرهُ. والذي نال هذه النعمة هو اليوم في بيروت يقصّ الآية على كل من يريد تفاصيلها ويشكر لله ما منّ به عليه بشفاعة احد اوليائهِ. ولدينا غير هذا من المعجزات التي جرت مع متاولة ودروز وغيرهم. وفي ما اثبتنا كفاية ونحن نتمنى ان يطلب الرهبان البلديون من الكرسي الرسولي ان يعهد الى من يوثق بهم فحص حياة رجل الله واعمالهِ الصالحة ومعجزاتهِ المقرَّرة لكي يثبتوا بنوع قانوني برارتهُ

صناعة النجارة في المشرق

بحث تاريخيّ وعمليّ (لاحق بسابق راجع الصفحة ٨٦)

للاديب يوسف افندي غنّام ثابت

٣ النجارة الشرقية في القرون المتوسطة

لقد اثبتنا في مقالتنا السابقة تقدُّم النجارة في الاعصار الاولى وسنعمل النظر الان في القرون المتوسطة الى غاية عهدنا هذا ونبسط الكلام في فنونها الدقيقة وكيفيَّة العمل فيها فيما بعد ان شاء الله تعالى

نقول ان للمجدّ الباحث عن آثار النجارة في القرون المتوسطة شواهد عيانيَّة ورسوم عديدة وكتابات تاريخيَّة مجيدة. فامَّا الرسوم والكتاباتُ فهي عبارة عن مجموعات كبيرة وتآليف تاريخيَّة ومجلات علميَّة كثيرة يتحرَّى نشرها جماعة من ذوي الفضل والعرفان من نخبة الرجال وكبار العلماء الاوربيين في هذا الزمان والشواهد العيانيَّة هي الآثار الباقية في البلاد وسنأتي بذكرها بعد الفراغ من وصف الرسوم والتآليف المشار اليها التي تأخذ بألباب كلّ من يجيل فيها طرفهُ فلا يعود يتمالك عن مديح الرجال الفطاحل والمستشرقين الافاضل الذين قاموا بهذه الاعمال المأثورة بل يزيد على كلامنا اطراء ووصفًا اذا ما رأى اتقان طبع هذه المجلدات الضخمة وشاهد ألوانها المتعددة الزاهية

وحسن ورقها النقي الصقيل وجودة رسمها اذ لا ترى العين صورة الّا بُهِتت من رُوِعها. وزد عليه انّ كلاًّ من هذه الكتب يحتوي عددًا وافرًا من الصور التي تمثّل لنا رسوم ادقّ ما وجد من الفنون الشرقيّة على اختلاف انواعها ومن جملة ما تتضمّنهُ رسوم عديدة من سائر اشغال النجارة كالخيط والفسيفساء (الموزاييك) والحفر النافر والنقش العربي الناعم وفنون الشبكيّات المخروطة والتخريم بالمنشار والتطعيم بالخشب الملوّن والترصيع بعرق اللؤلؤ والاسلاك المعدنيّة الى غير ذلك من الفنون التي يفتخر بها صنّاع بلادنا ويعلون قدرًا على من سواهم لما حوتهُ من الهندسة الرائعة التي تأخذ بالابصار وتفتن الالباب وتقضي بالعجب العجاب

وممّا يُطرأ من مزايا هذه المجموعات والرسوم الغرّاء تحرّي اصحابها ذكر البلاد والامكنة والمتاحف التي تحتويها وأُخذت منها هذه الرسوم وتاريخها الى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي تنبئنا بانّ النجارة دامت زاهية على كرور الاعصار. ولكي يدرك القارئ جلالة قدر هذه التآليف ونفاستها مع علوّ مقام الرسوم والفنون الشرقية عند الاوربيين وشغفهم بها نذكر هنا بعضًا منها واوّلها تأليف بريس داڤان في النقش العربي (Prisse d'Avesnes : *La décoration arabe*) يُباع بالف فرنك ولهُ مختصر يُباع بمئة وخمسين فرنكًا وقد اشتهر ايضًا تأليف كولينو دي بومنت في الزّين العربية (Collinot de Beaumont : *Les ornements arabes*) ثمنهُ مئة فرنك وتأليف بورغوان في اصول الصناعة العربيّة (J.Bourgoin : *Les éléments de l'art arabe*) وتأليف غايه (Al. Gayet) في صنائع العرب وغير ذلك ممّا يطول شرحهُ

فللّه درّ هؤلاء الرجال ما اعلى كعبهم كيف عرفوا ان يزيّنوا العلم بالعمل وجنوا ثمرة اتعابهم وخلدوا لنا ذكر مهرة الصنّاع واشغالهم البديعة بحيث لا تمحوهُ كرور الاعصار. وعليهِ فقد وجب هنا على كل شرقيّ طُبع على معرفة الجميل والفضل واحبّ المعارف والفنون ان يسدي ابهى الشكر ويرفع اجل المديح والثناء لمقام المستشرقين العلماء ويحمد هممهم العالية الشماء اذ لا يزالون يعتنون بحفظ آثار بلادنا وصيانتها في متاحفهم او نشرها بالطبع في مضامين مصنّفاتهم ومجلّاتهم العلميّة التي انشأوها للبحث عن الآثار الشرقيّة

فهذا برضٌ من عدّ اقتبسناهُ بعد تقليب بضع صفحات من التآليف الغراء المشار

اليها التي جمعتها ادارة المكتبة الشرقيَّة في كليَّة القديس يوسف الزاهرة الناشرة اضواء مصابيحها في بلادنا الشرقيَّة وهو كافٍ لاثبات غرضنا

٤ في آثار النجارة القديمة في بلادنا

لمَّا كانت آثار البنايات الرفيعة الشان متعددةً في بلادنا وكثيرٌ منها ممَّا سلم من العوادي المتلفة لم يزل ماثلًا ينطق لسان حالهِ بما نزوم وكانت اغنى البلاد بهذه الآثار مدينة الفنون السوريَّة والتحف الخطيرة دمشق الشام رأينا ان نقدم ذكرها على سائر البلاد. فاذا ما دخلنا الفيحاء وتناولنا القلم هبطت علينا آيات البلاغة وجرى الحبر كالسيل على القرطاس وتمثَّلت لنا صور المعاني وبدت كالخرائد الحسان قائلةً: «صِفْنا فتخلد لنا ولك على الدهر ذكرًا طيبًا يدوم مدى الازمان»

فاول ما يخالج قلبنا الشوق والحنان اذا حللنا ربع دمشق الى زيارة جامعها الاموي وقد ألمعنا الى بعض وصفهِ فيما سبق ففي هذا الجامع الطالع في سماء الصنائع كالكوكب اللامع ترى فنون النجارة الشرقيَّة الدقيقة بانواعها كالفسيفساء والخيط والنقش على تعدد انواعهِ والمقرنص والشبكيَّات (الشمريَّات) والتطعيم بعرق اللؤلؤ والاسلاك المعدنيَّة وكل ذلك مصنوع باتقان بديع وهندسة رائعة وهندام واحكام لم يبقِ لآخر من مزيد

ثم اذا بحثت عن البيوت القديمة فيها التي حوت شيئًا من هذه الآثار فاول ما يُنعت لك بالاوصاف الجميلة الغراء بيت عبد الله اسعد باشا العظم وهو عبارة عن بناء كبير واسع الارجاء فيهِ مئات من الغُرف وقد ازدان بعضها بمحاسن كثيرة من طُرف هذه الصناعات الشرقيَّة التي نحن بصددها. وكذلك يوصف بمثل هذه الغرر بيت شمعايا اليهودي. وعلاوةً على ذلك ان في هذا البيت قاعةً فسيحة صُفِّحت جدرانها بالخشب المزيَّن بضروب الفنون وممَّا امتاز فيها الترصيع باللؤلؤ فهو بالغ حدَّ الاعجاز واجمالًا فان اشغالها تعدُّ في اعلى مكان من البراعة والتفنن ولا مزيد عليها مهما سخت النفس وجادت على العتة بالعطاء. واعلم ان هذين البيتين من اقدم بيوت دمشق وجميع السيَّاح الاوربيين يتهافتون الى زيارتهما ويخرجون معجبين مفتونين ببراعة الدمشقيين الاقدمين وحذاقتهم

وممَّا يزيد هذه الاشغال حسنًا على حسن ويجعلها تفوق كل فنّ براعة توشيتها بالذهب الابريز وحسن صبغها بالالوان الزاهية المتناسبة الاشكال الحسنة الادماج بحيث تأخذ روعةً من البهاء والجمال لا ضريب لها

هذا وقد اقتصرنا عن وصف باقي مباني دمشق الفخيمة ومساجدها البهيَّة القديمة غير اننا نقول انهُ لم يخلُ جيل او يمرَّ عام دون ان يشاد فيهِ في حاضرة دمشق الشام بناء رفيع الذكر يزدان بمحاسن النجارة الشرقيَّة واذ كان تعدادها مما يبعث على الملل فنكتفي بذكر اقونسطاس الكنيسة المريميَّة للروم الارثذكس وهو قديم جدًا والكنيسة البطرسية للروم الكاثوليك الَّا ان الاشغال في هذه الكنيسة هي حديثة العهد قام بها الاستاذ البارع جرجي بيطار الذي تغني شهرتهُ عن مدحهِ. والآن نكتفي بما ذكرناهُ عن دمشق وان كان يسيرًا وفي املنا ان نعود اليها مرَّة ثانية ونلقي نظرنا على اسواقها لنصف مصنوعاتها الحديثة ونطري بالمديح والثناء من يستحق ذلك من صنَّاعها

ومن المدن التي اذخرت لها اسمًا جليلًا في الصناعة مدينة حمص وهي من اعرق المدن في القدم بهذه الاصقاع وقد قام فيها على توالي الاعصار عدة بنايات انيقة تد اقتضت لها من اشغال النجارة ما يليق بتلك المباني. ولنا في هذه المدينة اثر بديع صبر على آفات الزمان لا يسعنا الاضراب عنهُ وهو اقونسطاس كنيسة مار يوحنَّا المعمدان للروم الارثذكس . وهذا الاقونسطاس جامعٌ لضروب الصناعة الخشبيَّة الدقيقة بانواعها تام الهندسة والاتقان لا يستطيع احد في هذا العصر ان يقلدهُ ومما قد تفرَّد فيهِ هذا الاقونسطاس هو ان سائر تصاويرهِ مصنوعة من الخشب ومحفورة فيهِ حفرًا نافرًا وموشَّاة بالذهب والالوان البديعة المشرقة لكنَّ يد الدهر قد ابات هذا الأثر النفيس فنُزع من الكنيسة المذكورة منذ سنتين واستبدل باقونسطاس آخر جديد لا يماثل الاوَّل في اتقانهِ الفائق. وقد قيل لي ان الاقونسطاس السابق كان لقدمهِ اصبح لا تعمل فيهِ النار. ولا اعلم ما في هذا القول من الصحَّة

ولنتنوَّه بهذا المقام بذكر حلب ومحاسن بناياتها ومساجدها العريقة في القدم ولاسيَّما قلعتها وابوابها ونوافذها وجسرها النقَّال البديع الصنع منذ القديم. امَّا بلاد مصر والاستانة والصعيد والمغرب والاندلس والعراق والهند فانها كلها تحتوي شيئًا كثيرًا من هذه التحف نكتفي بالاشارة اليها خوفًا من الاطالة واكتفاء بما هو مشهور عن براعة اهلها في الصنائع والفنون ،

ولنؤب الان الى مسقط الرأس لبنان ونشكر للاب هنري لامنس الذي عرَّفنا بمقالتهِ آثار لبنان بكثير من مبانيهِ الشائقة وكنائسهِ القديمة التي بنيت بازمان متتالية

فاغنانا عن ذكرها. ومما يُروى عن آل تنوخ وممن في قريتي اعبيه وصليما وقصبة دير القمر ومبانيهم الفخيمة يظهر ان هذه البنايات كانت متقنة جدًّا وتاريخ بنائها لا يقل عن ستمائة سنة وبالضرورة ان نجارتها كانت من طرز تلك المباني

وقد عرفنا ايضًا من تاريخ بيروت لآل تنوخ الذي نشره حضرة مدير هذه المجلة ان بعضًا من الامراء التنوخيين كانوا من حذّاق العملة في صناعة النجارة ولهم فيها آثار بديعة عدّد بعضها ونعت محاسنها صالح بن يحيى صاحب التاريخ المذكور. وقد اشتهر بينهم: الامير عز الدين جواد بن علم الدين سليمان المتوفى سنة ١٣٥٧ واخوهُ الامير ركن الدين وكان هذا ايضًا كاتبًا بارعًا. والامير زين الدين صالح ابن ناصر الدين المتوفى سنة ١٣٧٧ . والامير بدر الدين موسى ابن الامير زين الدين صالح وهذا كان بارعًا في الصياغة فضلًا عن النجارة وقد اخذ هذا الفن عن عزّ الدين جواد وكان يطبع الفضة طبعًا (بصمًا) ويرصعها بالمينا.. ومن تعريف صالح بن يحيى لاشغال هؤلاء في النجارة نستدل على ان امراء القرون السالفة لم يأنفوا من مزاولة الصنائع بل يفتخرون باتقانها

ومن الاماكن التي حوت في لبنان شيئًا من النجارة يستحق ان يُنظم في تُحَف الصناعة اقونسطاس كنيسة مار الياس شويًّا وخصوصًا سراية بيت الدين التي شيّدها الامير بشير الشهير في اواخر القرن الثامن عشر وعليه فلننعم بها النظر قليلًا ونتأمل في مشهدها البديع الفتان لانَّ صاحبها قد اعتنى فيها اعتناء فارطًا فظهرت ابدع سراية أنشئت في هذه الاقطار ليس يوجد نظيرها في بلاد الشام بحسن البناء والنقوش والزخرفة وقد قام في بنائها اشهر المعلمين الذين استدعاهم الامير اليها من حلب والشام وسائر بلادنا ففي هذه السراية كانت اشغالٌ بديعة من النجارة استرسل الشعراء في وصفها فقد كانت بعض سقفانها من الخشب محفورة حفرًا بديعًا ومموَّهةً بالذهب على انها كلها لم تدُم مديدًا بسبب العوادي الطبيعيَّة التي تعتري الخشب ولاسيما اذا كان مغطًّى بطبقة ثخينة من التراب وتنهال عليه الامطار. غير ان هذه الآثار لم تمَّحِ كلها بل يوجد منها شيء كثير في السراية الداخلية المعروفة بسراية الحريم ومقصف الامير امين وشيء يسير في مقصف الامير قاسم وهذان المقصفان هما عبارة عن دارين كبيرتين تملكهما سيادة المثلث الرحمات المطران بطرس البستاني وفي احداها كرسي ابرشية صيداء ودير القمر. وفي نفسنا ان نعود الى وصف بيت الدين بمقالة مستقلة ونبيّن فيها اشياء كثيرة لا يسمح لنا المقام بذكرها هنا

وان سرَّحنا الآن ابصارنا في بيروت وجدنا انَّ اكثر عاديَّاتها الخشبية قد ذهب بها الزمان. واهمّ ما وقفنا عليهِ من اعمال النجارة القديمة بعض ابواب ذات طرز قديم جدًّا تعرف عند اهل الصناعة بالحشأة والحجَّرة وخزائن في البيوت لا تخلو من بعض الزخرفة

امَّا كنائسها فلا تخلو ممَّا يستحق الذكر. منها كنيسة النبي الياس للروم الكاثوليك فانَّنا اذا وقفنا بازاء بابها الكبير وجدناهُ محفورًا ذا عروق حسنة وفي داخل الكنيسة مذبحان بديعان قد أُسندا على عمد الكنيسة وهما جميلان جدًّا أُحكمت هندستهما لكنَّ صانعها لم يتقن حفرها كثيرًا. وكذا قُلْ عن منبر الخطابة وسلَّمهِ. اما اقونسطاسها البديع فلا نتعرَّض لوصفهِ لكونهِ مصنوعًا من الرخام وبعض الاحجار الملوَّنة. ومنها كنيسة ماري جاورجيوس للروم الارثذكس وهي تحتوي من الآثار الخشبية البديعة ما لا يُرى في غيرها من ذلك وهو اقونسطاسها المقدس الذي قام بصنعهِ المعلم وهبه النجار الدمشقي والد مطران طرابلس على الروم المتوفَّى منذ نيف وعشرين سنة(١ وتاريخ صنع هذا الاقونسطاس معروف ممَّا كُتب عليهِ بالعربية واليونانية ايضًا: « قد كمل هذا التمبلن والاقونسطاس سنة ١٧٨٣ مسيحية في شهر اذار في رئاسة المطران كير مكاريوس ووكالة الشيخ يونس نقولا . . . ».

فهذا الاقونسطاس قد حوى من فنون النجارة ابدعها واروعها منظرًا كالحفر الجميل والتخريق النحيف والمشبكات اللطيفة والقرنص الملوكي الفخيم والتاجات الجميلة وجميع فنون هذه الصناعة الشرقية الحائزة اعلى طبقات الكمال والجمال والاحكام في مقابلة الرسوم بعضها لبعض ولا سيَّما في براعة التمثيل وفخامة المنظر وجلالتهِ بحيث جاء لائقًا بالمقام الديني الشريف وهو مزدان برسوم عديدة مسيحية تنبئ بسموّ عقل وحذاقة صانعهِ واتّساع معارفهِ وتضلعهِ بالهندسة والصناعة وكنَّا حاولنا ان نأخذ رسم هذا العمل البديع لننشرهُ في المجلَّة ونجعلهُ كمثال لصنَّاع بيروت يحذون حذوهُ ويقتبسون من هندستهِ الشرقية فحالت دون مرغوبنا عوائق لم نكن لننتظرها والله موفّق لكل خير (ستأتي البقيَّة)

١) قد اخبرني بهذا جناب الخواجا ديمتري طرزي التاجر الشهير بالمصنوعات الشرقية عمومًا والنجارة خصوصًا. وممَّا افادني ايضًا: « ان الروم كانوا يعتبرون سابقًا ولا يزالون الاقونسطاسات والهياكل الخشبية ذات العرف الطيب اكثر من الاقونسطاسات المصنوعة من الرخام والاحجار الجميلة » راجع ايضًا مقالة الاب لامنس في الأرز واستعمالهِ قديمًا في المعابد والمباني الفخيمة (المشرق ٤: ٦٢٠)

مطبوعات شرقية جديدة

الدرر الغوالي من حياة المطران جرمانوس الشمالي

لجامعها الخوري بشاره الشمالي

طبع في المطبعة الشرقية في الحدث (لبنان ١٩٠٢، ص ١٩٧)

لا نُطيل الكلام في وصف هذا الكتاب النفيس وقد وعدنا جامعهُ بان يضمّن خلاصتهُ في مقالة يحرّرها لقراء المشرق. وحسبنا اليوم ان نقول انَّ هذا التأليف يمثّل لنا على احسن طريقة ترجمة حياة احد الاحبار الافاضل الذين شرّفوا الطائفة المارونيَّة باعمالهم المبرورة وفضائلهم السامية وهو الطيّب الذكر المطران جرمانوس الشمالي. وفي هذا الكتاب عدَّة حوادث تفيد التاريخ الديني في بلادنا مدَّة نصف القرن الاخير فضلاً عمَّا أُلحق بهِ من نظم المرحوم ومراسلاتهِ. فنثني على همَّة الجامع ونتمنى ان قراءة كتابهِ تبعث في قلوب كثيرين الرغبة في اقتفاء آثارهِ أثابهُ الله وطيَّب ضريحهُ

التحفة العاميَّة

حرّرت بقلم « زيد » (طبعت في سان باولو برازيل ١٩٠٢، ص ١٠٤)

يأنف اغلب الكتبة من استعمال اللغة العاميَّة لنشر افكارهم وترويج مقاصدهم على انَّ لهجة العوام في بعض الاحيان اقرب الى نوال المرغوب واقوى فعلًا في القلوب فانَّ الادباء يجدون فيها تفكهة للارواح اما الجمهور فيرى صورة حياتهِ اليوميَّة وكلامهِ المطروق وامثالهِ المتادة فتؤثر فيهِ اقوال الكاتب ومضامين تحريراتهِ. والتحفة العاميَّة من هذا القبيل اودعها صاحبها الاديب شكري افندي الخوري تفصيل رحلة احد السوريين يدعى فنيانوس الى سوريَّة عائدًا اليها من اميركة مع ما أُصيب بهِ في سفرهِ ثمَّ في قريتهِ من صنوف البلايا التي حملتهُ على ان يهاجر الديار ثانيةً ويكرّ راجعًا الى الغربة. وفي الكتاب من اوصاف العادات اللبنانيَّة في الدين والمعاش والزواج والجنازات والمحاكم ما تستطاب قراءتهُ. وفي آخر هذا التأليف ذيل في تاريخ الجرائد في البرازيل كنَّا وددنا ان لا يبالغ الكاتب في الثناء على بعض منها مع سوء طريقة كتبتها. فكيف يمكنهُ مثلًا ان يقول عن جريدة « البرازيل » انَّ خطَّتها معتدلة مع ما نرى فيها من المقالات البذيئة والتشنيع على الادباء وارباب الدين

ل. ش

شذرات

المحاكم في انكلترة رفع الاب ڤون اليسوعي شقيق الكردينال ڤون رئيس اساقفة وستمنستر الى محكمة لندن قضيّة على جريدة بروتستانيّة اسمها «روك» طعنت في الرهبان اليسوعيين واصفةً اياهم بعدم الوطنيّة ومخالفة الشرائع وعدم الاخلاص لحكومة البلاد فصدر الحكم من المحكمة المذكورة بتغريم الجريدة المحكي عنها بمبلغ ثمانمائة ليرة انكليزيّة بدل عطل وضرر. فما قول الضياء في ذلك

المثرون في الولايات المتحدة ورد في جريدة « نيويورك هرلد ان في الولايات المتحدة ٣٨٢٨ شخصاً ممَّن تربي ثروتهم على المليون من الدولار. ولو جُمع غناهم لبلغ مجموعهُ ١٦ مليارًا من الدولار اعني انهم وحدهم حاصلون على خُمس ثروة الولايات المتحدة التي تبلغ ٨١ مليارًا. ونصف هؤلاء الاغنياء يملكون كل واحد اكثر من خمسين مليون فرنك. واغناهم المثري رُكفِلّر (Rokfeller) محتكر الزيت تبلغ ثروتهُ مليارين

كفن مصري قديم قد وجد المسيو غايه (Gayet) في مدينة انطينوية اجسامًا لقدماء المصريين البعض منها محنَّطة والبعض يابس لم يمسَّهُ الفساد لجفاف الارض التي دُفنت فيها. وكانت احدى هذه الجثث ملفوفة في كفن عليهِ صورة الميت. فوجد العلماء باكتشافهِ دليلًا جديدًا على صحة كفن السيد المسيح في تورين

السمك المغنّي من عجائب الكون السمك المغنّي الذي يوجد منهُ في بحيرة باتيكالوا في جزيرة سيلان. وقد كتب الاب اليسوعي هرمان كوخ فصلًا عنهُ اوردتهُ مجلة التمدُّن الكاثوليكي. وقد اخبر هذا المرسل انهُ سمع اصوات هذه الاسماك فكانت تخال لهُ كاصوات اجواق من الموسيقيين او اصحاب آلات الطرب فتُسمع تارةً خفيفة رخيمة وتارةً ضخمة كاصوات هدير الحيوانات. وهي تقترب حينًا وحينًا تبتعد وكان مع الاب كوخ يسوعيّان آخران خبيران بالموسيقى فدوَّنا هذه الاصوات بالعلامات الموسيقيّة. ومن عجيب الامور انهم لم يمكنهم ان يعرفوا جنس هذه الاسماك وكيفيَّة غنائها ولعلَّ هذه الاصوات تخرج من زعانفها ليست من افواهها

تقدُّم علم الجراحة كان فنُّ الجراحة لا يتعدَّى سابقًا العمليَّات

الخارجيَّة في اعضاء الجسم. غير انَّ الجرَّاحين منذ سنين قليلة لم يروا ان يقفوا عند هذا الحدّ وكثيرًا ما فتحوا الجسم واجروا في باطنهِ العمليَّات الغريبة فاتوا بنجاح يجاوز املهم. وقد افادتنا المجلات الطبيَّة الاخيرة انَّ عدة امراض اصابت القلب شفيت مؤَخرًا بحذق الجرّاحين. وقد رُوي عن بعضهم انَّهم فتحوا الصدر وكشفوا تمامًا عن القلب وبعد ان ازالوا منهُ بالمشرط مدَّتهُ وخراجاتهِ عادوا فخاطوهُ ثمَّ خاطوا الصدر

جوابنا على دكتور شربونيل — تعجَّب صاحب الضياء من كوننا لم نجب على مقالة دكتور شربونيل الَّا بسطرين. ولكن ساء ظنهُ اذ لم نحاول الجواب عليه مطلقًا لاننا نجلّ مجلّتنا عن الجواب لمثلهِ. وانَّما اكتفينا بتعريف هذا الكاتب ليتحقَّق الناس انَّ هذه الثمرة بنت تلك الشجرة

الابن ينشا على ما كان والدهُ ان العروق عليها ينبت الشجرُ

امَّا اذا احبَّ الشيخ صاحب الضياء ان نجيب على مقالة شربونيل جوابًا مطوَّلًا فلا بأس ولكن بشرط ان ينشر جوابنا في مجلّتهِ. فسوف نريهِ نيفًا ومئة وخمسين غلطة او تزويرًا في هذه التحفة التي متَّع بها قرّاءهُ

اسئلة واجوبة

س سُئلنا هل طُبعت الكتب الآتي ذكرها بفهارس موسَّعة وهي: الكامل لابن الاثير والكامل للمبرّد وكتاب الحماسة والكنز المدفون والمستظرف

فهارس بعض المطبوعات

ج طُبع الكامل لابن الاثير في ليدن مع فهارس للاعلام وترجمة لاتينيَّة سنة ١٨٥١—١٨٧٦ طبعة تُرنبرغ. ولهُ طبعة أُخرى في جملة تواريخ الصليبيين مع ترجمة افرنسيَّة وفهرست. وكذلك الكامل لابي العباس المبرّد قد طُبع طبعة حسنة مع فهارس مطوَّلة في ليبسيغ (١٨٦٤ — ١٨٩٢) طبعة رَيت (Wright). وقد نقل فريتاغ الشهير كتاب الحماسة الى اللاتينيَّة مع شرحها للتبريزي وختم طبعتهُ بفهارس متقنة. امَّا الكنز المدفون والمستظرف فلا نعرف لهما غير الطبعات الشرقيَّة دون فهارس وافية

س وسأل جناب الاديب سعد الملم من بطرسبورغ في اميركة هل يصحّ القول بان شفاعة العذراء مريم مقبولة عند الله بحيث تنير حكمةُ تعالى

شفاعة العذراء مريم

ج معلوم انهُ ليس في الله عزَّ وجلَّ تغيير البتَّة وانَّ احكامهُ ثابتة منذ الابد والى منتهى الدهر. لكننا نعلم ايضاً بنوع مقرَّر ان شفاعة اولياء الله عموماً والبتول العذراء خصوصاً مقبولة لدى الله بحيث يمنح تبارك وتعالى من النعم ما لم يكن منحهُ لولا هذه الشفاعة. اما الموافقة بين هذين الامرين المتباينين فمبنيَّة على علم الله السابق الذي منذ الابد قضى بانهُ يمنُّ في الزمان على عبادهِ بسوابغهِ اذا ما توسَّطت البتول والاولياء بينهُ وبينهم. ومن هذا القبيل يصحُّ القول بانَّ شفاعة البتول تغيّر احكام الله والاولى ان يقال انَّ هذا التغيير يصيبنا نحن ليس الله الذي لا يطرأ عليهِ ادنى تغيير

س وسأل من الناصرة حضرة الاب الفاضل الخوري طوبيا الدحداح. ١ هل يجوز للكاهن اللاتيني ان يقدّس على مذابح الموارنة اذا كانت البلاطة ثمَّ خالية من ذخائر القديسين او كانت من خشب. ٢ هل يجوز لهُ او للكاهن الماروني ان يقدّسا على مذابح الروم الكاثوليك حيث يستعاض عن البلاطة بالانديمينسي (وهي قطعة من قماش الكتان ابيض مكرَّسة بالميرون وفي وسطها ذخائر القديسين). ٣ هل يجوز للكاهن الرومي الكاثوليكي ان يقدّس على مذابح اللاتين والموارنة دون الانديمينسي. ٤ هل الضرورة تجيز لاحد كهنة الطقوس المذكورة مخالفة طقسهِ القدَّاس على مذابح طقوس مختلفة.

ج نجيب على (الاوَّل) انهُ لا يجوز للكاهن اللاتيني ان يقدّس على مذابح الموارنة اذا كانت خالية من ذخائر القدّيسين. الَّا اذا نال رخصة بذلك وقد سمحت رومية بهذا لبعض المرسلين. و(على الثاني) انَّ المجمع المقدَّس قد اجاب سلبياً على مثل هذا السؤال سنة ١٧٢٦ فلم يُجز للكاهن اللاتيني بتقدمة الذبيحة على الانديميسي وانَّما قد رخَّص الكرسي الرسولي لبعض المرسلين بالتقديس عليهِ. اما الموارنة فلم نجد نصًّا في المجمع اللبناني وفي منارة الاقداس يسمح لهم باقامة القدَّاس على الانديميسي. و(على الثالث) انَّ الكاهن الرومي الملكي لا يمكنهُ ان يقدّس على مذبح اللاتين دون الانديميسي. على ما جاء في بعض اجوبة الكرسي الرسولي. و(على الرابع) انَّ عند الضرورة ينبغي مراجعة الاسقف ل. ش

سؤالات طقسية مرفوعة من احد كهنة الموارنة الى ذوي الامر

١ هل يعوَّل على قنداق الشحيم الملق على الطبعة الاولى في رومية ام على قنداق الشحيم المطبوع في بيروت مؤخرًا ام على قنداق منصور الحكيم ام على العوائد المخالفة للقنداق بانواعهِ =

٢ سؤال عامّ بشان منارة القداس هل يعتمد على منارة الاب اسكندر القبرسي المعانة على كتاب القدَّاس المطبوع سنة ١٧١٦ ام على غيرها من المنارات ومن المقرَّر بعد البحث ان منارة الدويهي تخالف منارة القبرسي فهل يعوَّل في ما فيهِ اختلاف على منارة الدويهي